جامعة دمشق
كليّة الآداب الثّالثة

محاضرات في الأدب الأمويّ

د. خليل عبد العال

٢٠٢٣م

الفرزدق (همّام بن غالب التميمي)

و

جرير بن عَطِيَّة التميمي

١- بنو تميم قوم الفرزدق وجرير :

تُعَدّ قبيلة (تميم) العربية الأصيلة من أكبر القبائل العربية القديمة ، وقد كانت تعيش في الجاهلية في نجد وشرقي الجزيرة العربية (في بادية اليمامة = الرياض اليوم) ، وتمتد شمالاً إلى شاطئ الفرات بالعراق ، وقد دخلت تميم في الإسلام في سنة ٩هـ (عام الوفود) حين قدم وفدها على النبي (ص) في المدينة مع الشاعرين المخضرمين (**الزبرقان بن بدر**) و(**عمرو بن الأهتم**) ، وكان (**صعصعة**) - جد الفرزدق - أحدَ أفراد هذا الوفد ، وهو الذي كان يلقَّب في الجاهلية بـ (**مُحْيِي الموؤُودات**) ، وقد أنقذ ما بين ٣٠٠و٤٠٠ مولودة بدفع المال لآبائهن الفقراء (وكان يفدي كل واحدة بناقتين وجَمَلٍ) ، وذكر ذلك للنبي (ص) فاستحسنه منه ، وطلب إلى النبي أن يوصيَه ، فقال له (**احفَظْ ما بينَ لَحيَيْكَ وما بين رِجْلَيْك**) . وكانت هذه القبيلة من القبائل التي سارعت إلى الردة بعد وفاة النبي (ص) ، وقادت جموعَها في الردة امرأةٌ متنبئة تدعى (**سَجَاحِ**) ، ولم تلبث أن تزوجت من سيد بني حنيفة في اليمامة المتنبئ (**مسيلمة بن حبيب**) الكذاب ، لتقوى شوكةُ الردة ، ثم عادت تميم إلى إسلامها ، وانتشرت مع القبائل الأخرى التي شاركت في فتوح العراق وفارس وخراسان واستوطنت في هذه البلدان .

وقد اشتهر في الجاهلية عدد كبير من شعراء تميم ، منهم على سبيل المثال : (**أوس بن حَجَر ، وسلامة بن جَنْدَل ، وعلقمة الفحل ، وعَدِيّ بن زيد**) ، وعرف من شعرائها المخضرمين بين الجاهلية والإسلام عددٌ آخر كبير ، منهم على سبيل المثال أيضاً : (**مُتَمِّم بن نُوَيْرة** وأخوه **مالك** ، **وعَبَدة بن الطبيب** ، **والزِّبْرِقان بن**

بدر ، **وعمرو بن الأهتم**) ، ونبغ من شعرائها في العصر الأموي عدد كبير أيضاً من أبرزهم قمتا الشعر فيه (**الفرزدق**) و(**جرير**) .

٢– نبذة عن الشاعر الفرزدق :

أُطْلِق على شاعرنا لقب (**الفرزدق**) ، فاشتهر به حتى غطّى على اسمه الحقيقي ، وهو كلمة فارسية معربة مفردها (**فرزدقة**) وتعني (**القطعة من العجين**) ، أو (**الرغيفُ الضخم الذي تجفِّفه النساء للفَتُوت**) أي الذي تَصنَع منه الفتَّة ، ورُوِي أنه لُقِّب بذلك لأنه كان جَهْم الوجه كهذه الخبزة ، وقيل : لتورُّدِه وهو صغير . وقيل : بل أطلِق عليه ذلك حين كبر وأقام في البصرة ، لأنه كان يُشْبِه دهقاناً فيها يُدعَى (الفرزدق) .

وكان الفرزدق يُكَنِّى (**أبا فِراس**) ، ويُكَنِّي نفسه أحياناً (**أبا مَكِّية**) ، وهي ابنة سوداء له من أمَةٍ سوداء . أما اسم شاعرنا فهو (**همّام بن غالب بن صَعْصَعَة**) ، وقد وُلِد في واحة من بادية الكويت اليوم تقع في شمالي شرقي الجهراء تُدْعى (**كاظِمة**) ، سنة ٢٠هـ في أواخر خلافة عمر (ر) ، وكان ينتمي إلى بطن (**مُجاشِع**) من فرع (**دارم**) التميمي ، المشهور بالمآثر والمفاخر منذ العصر الجاهلي . وقد ترعرع وشبّ في تلك البادية زمن خلافة عثمان (ر) .

وقال الشعرَ وهو غلام وكان يستعمله في التهاجي مع الناس . ثم نجد أباه (**غالباً**) يصطحبه ، بعد وقعة الجمل سنة ٣٦هـ ، إلى البصرة ، ويدخل به على (**علي**) (ر) ، مهنِّئاً إياه بالنصر على خصومه ، ويقدِّم له ابنه ويذكر له قوله الشعر ، فينصحه علي بأن يوجِّه ابنه إلى حفظ القرآن الكريم ، بدلاً من الشعر ، وقد ظلّ الفرزدق يذكر هذا اللقاء التاريخي ، وكان متعاطفاً ، في دخيلة نفسه ، مع علي وآله منذ تلك اللحظة ، يحفظ لهم الود والتقدير والاحترام ، ويعبر عن حبهم وينصحهم ، ولذلك نجده في الأيام الأخيرة من سنة ٦٠هـ يلتقي في طريقه (**الحسين بن علي**) (ر) وهو جادٌّ بموكبه إلى الكوفة ، فيسلم عليه وينصحه بالعودة من

حيث أتى قائلاً له : (**إن قلوب أهل الكوفة معك ، ولكن سيوفهم مع بني أمية ، فلا تأمن لهم**) ، فشكره الحسين على نصيحته ولم يعمل بها ، فكانت الفاجعة الكبرى بمقتل الحسين وذويه من آل البيت بكربلاء في عاشوراء شهر المحرم من سنة ٦١هـ في أول خلافة (**يزيد بن معاوية**) (٦٠هـ – ٦٤هـ) ، ثم نجد الفرزدق يلتقي في أحد مواسم الحج بـ (**هشام بن عبد الملك**) ، قبل خلافته ، بـ (**علي بن الحسين**) ، الملقب بـ (**زين العابدين**) ، فيرى الناس يفسحون له المجال في الطواف وتسلّم الحجر الأسود ، ولا يفعلون مثل ذلك لهشام ، فيسأل هشام عنه : مَنْ هذا ؟ فيغيظ سؤاله الإنكاري هذا الفرزدق ، فيقول جواباً عنه قصيدة يمدح فيها زين العابدين يقول في بعضها :

هذا الذي تعرِفُ البطحاءُ وطأتَهُ والبيتُ يعرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
يُغْضِيْ حَيَاءً ويُغْضَى من مَهَابَتِهِ فَمَا يُكَلَّمُ إلاّ حينَ يَبْتَسِمُ

٣– ثقافته وشاعريته ومنْزِلته :

كانت منْزِلةُ الفرزدق عالية في زمانه وبعد زمانه في ميدان الشعر ، وقد أكثر اللغويون وعلماء المعاجم من الاستشهاد بشعره ، حتى قال عنه بعض النقاد القدماء : (**لولا شعر الفرزدق لضاع ثلث لغة العرب**) ، وقال بعضهم : (**لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس**) . وقال بعضهم مقارناً بين الفرزدق وجرير في تذوُّق الناس لشعر كلٍّ منهما : (**الفرزدقُ أشعرُ خاصَّة** [أي بين خاصَّة الناس] ، **وجريرٌ أشعرُ عامَّةً** [أي بين عامتهم]) . وذكر (**أبو الفرج الأصفهاني**) (م٣٥٦هـ) عنهما في كتابه (**الأغاني**) قوله مقارناً بينهما من حيث طبيعة شعرهما : (**أما مَنْ كان يَمِيْلُ إلى جزالة الشعر ، وفَخامَتِه ، وشِدَّةِ أسْرِه ، فيُقَدِّم الفرزدَق . وأما مَنْ كان يَمِيْلُ إلى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السَّمْحِ السَّهْلِ الغَزِل ، فيُقَدِّم جريراً**) .

وقد صنَّف (**ابن سَلاّم الْجُمَحِي**) (م٢٣٢هـ) جريراً والفرزدق ، في كتابه (**طبقات فحول الشعراء**) ، في الطبقة الأولى من طبقات الشعراء الإسلاميين مع

شاعرين آخرين على الترتيب التالي : (**جرير ، والفرزدق ، والأخطل التغلبي ، وراعي الإبِل النميري**) ، لأن هؤلاء الأربعة كانوا أفحل الشعراء المقدمين في العصر الأموي . وربما يكشف لنا تقديم ابن سلاّم ، هنا ، جريراً على الفرزدق في هذا الترتيب ، عن ميله الخفي إلى جرير وشعره أكثر من ميله إلى الفرزدق وشعره ، وإن كان قد ادَّعى في مقدمة (طبقاته) أن الترتيب في الطبقة الواحدة لا يعني له شيئاً حين قال : (**وليسَ تبدِئتُنا أحدَهم في الكِتاب نَحْكُمُ له ، ولا بُدَّ من مُبْتَدَأ**) . ونقل أبو الفرج عن يونس بن حبيب ، وكان فَرَزْدَقِيّاً ، وأحدَ نُقّاد القرن الثاني للهجرة ، اختلافَ الناس في مجالسهم ، في تقديم أحد الشاعرين على الآخر ، حين قال : (**ما ذُكِر جريرٌ والفرزدقُ في مجلسٍ شهِدتُه قطُّ فاتَّفَق المجلِسُ على أحدِهما**) .

وكان الفرزدق واسع الاطلاع على تراث العرب الشعري خاصة والأدبي عامة ، كما كان واسع الحفظ له ، وكان يفخر بأنه قد ورث أشعار كل المتقدمين من جاهليين ومخضرمين وإسلاميين إلى زمانه ، وقد عدَّد مشاهيرهم في أحد عشر بيتاً من نقيضة شهيرة طويلة قالها في جرير مطلعها (**إن الذي سَمَكَ السَّمَاءَ بنى لنا**) ، ومنها قوله :

وَهَبَ القَصائِدَ لِي النَّوَابِغُ إِذْ مَضَوْا ... وأَبُوْ يَزِيْدَ وَذُو القُرُوحِ وَجَرْوَلُ

والفَحْلُ عَلْقَمَةُ الذي كانتْ لهُ ... حُلَلُ المُلُوكِ كَلامُهُ لا يُنْحَلُ

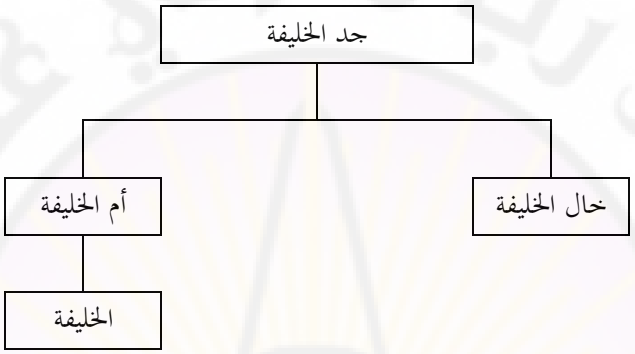
وابْنا أبي سُلْمَى زُهَيْرٌ وابْنُهُ ... وابْنُ الفُرَيْعَةِ حِيْنَ جَدَّ الْمِقْوَلُ

[يريد بالنوابغ : الذبياني ، والجعدي ، والشيباني ، وبأبي يزيد : المُخَبَّل السعدي ، وبذي القروح : امرأ القيس ، وبجرول : الحطيئة . وبعلقمة : علقمة بن عَبْدَة . وبابن الفريعة : حسان بن ثابت ، والفريعة أمُّه]

وكان في شعره أحياناً معاظَلَةٌ [أي : خَرْقٌ للترتيب الطبيعي للكلمات كما تقتضيه قواعد النحو] تؤدِّي إلى غموضٍ معنوي ، على شاكلة ما يستشهِد به البلاغيون في مدح (**هشام بن إسماعيل المخزومي**) خالِ الخليفة هشام بن عبد الملك :

وَمَا مِثْلُهُ فِي الناسِ إلاّ مُمَلَّكٌ أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

والترتيب الطبيعي للكلام في البيت (**وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلا مملك أبو أمه أبوه**) . ويمكن رسم شجرة النسب كالتالي :



وله مقطَّعةٌ شعرية رائعة في وصف ذئب جاءه ، وهو في الصحراء ليلاً ، أمام خيمته ، يشوي على النار حملاً ، وكان في صُحْبَةِ سَفْرٍ يَغطُّون في نومٍ عميق ، يقول فيها :

وَأَطْلَسَ عَسَّالٍ وَمَا كَانَ صَاحِباً دَعَوْتُ بِنارِيْ مَوْهِناً فَأَتَانِي
فَلَمّا دَنا قُلْتُ : ادْنُ دُوْنَكَ إِنَّنِيْ وَإِيَّاكَ فِيْ زادِيْ لَمُشْتَرِكَانِ
فَبِتُّ أُسَوِّي الزَّادَ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَكَشَّرَ ضَاحِكاً وَقَائِمُ سَيْفِيْ مِنْ يَدِيْ بِمَكَانِ :
تَعَشَّ فَإِنْ وَاثَقْتَنِيْ لا تَخُونُنِيْ نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ
وَأَنْتَ امْرُؤٌ يَا ذِئْبُ وَالْغَدْرُ كُنْتُمَا أُخَيَّيْنِ كَانا أُرْضِعا بِلِبَانِ
وَلَوْ غَيْرَنا نَبَّهْتَ تَلْتَمِسُ الْقِرَى أَتَاكَ بِسَهْمٍ أَوْ شَبَاةِ سِنَانِ

[الأطلس : المائل لونه إلى لون التراب أو الصُّفْرة ، وهو صفة لمحذوف تقديره : وربَّ ذئبٍ أطلسَ . العسّال : المضطرب في جريه . موهناً : في منتصف الليل . قائم السيف :

قبضته . اللبان : حليب الأم . نبَّهتَ : أيقظتَ . تلتمس : تطلب . القِرَى : طعام الضيف . السِّنان : الحديدة التي تركَّب في رأس الرمح للطعن بها . وشباة السنان : حدّه]

ويلاحظ المرء في هذه القطعة لوحة حية متحركة ملونة مليئة بالمشاعر الإنسانية : من خوف ، وكرم ، وحذر ، وحرص ، ورحمة ، وتحدٍّ معاً . وهي تدُلّ على شجاعة الشاعر ، وعلى كرمه المتأصِّل حتّى مع الحيوان المتوحش المفترس في الصحراء ، وهذا قمة الرأفة والرفق بالحيوان ، وتعدّ هذه القطعة الشعرية من الأدب الإنساني الخالد ، وقد كان للشعراء قبل الفرزدق وبعده لقاءاتٌ مع الذئب ، غير أنهم تناولوا هذا اللقاء من منطلقات أخرى مختلفة .

٤– اتصال الفرزدق وجرير بالخلفاء الأمويين وولاتهم :

استوطن الفرزدق البصرة ، حين اشتدّ ساعده في الشعر ، حتى يكون قريباً من مركز الحركة الأدبية والعلمية فيها ، ونظن هذه النقلة من البادية إليها قد تَمَّت إثر استقرار الأمر لمعاوية وانتهاء الفتنة الكبرى بعد عام الجماعة سنة ٤١هـ بسنوات قليلة ، وصار يمدح ولاة الأمويين في البصرة والكوفة والمدينة : ومنهم سعيد بن العاص والي المدينة لمعاوية ، وهجا بعضهم في أثناء ولايتهم وفي حياتهم : ومنهم زياد بن أبيه والي البصرة ثم العراق لمعاوية ، ويبدو لنا أن جريراً – الذي كان قد ولد في بادية اليمامة سنة ٣٠هـ أو ٣٥هـ ، وتكوَّن فيها شعرياً ، قد انتقل إلى البصرة في حدود سنة ٦١هـ ، وابتنى فيها داراً ، وكان الهجاء قد ثار بين الشاعرين عن بعد حين كان جرير لا يزال في البادية ، فواصلا الأمر في سوق (المِرْبَد) بالبصرة ، ولكن سرعان ما خضعت البصرة منذ سنة ٦٤هـ لعبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة بمكة إحياء لنظرية الراشدين في الخلافة ، ولكن جريراً والفرزدق آثرا السلامة والعافية بعدم مدح أحد من الزبيريين خليفةً أو ولاةً ، ربما لأنهما كانا يحسّان أن عُمْرَ سلطان ابن الزبير قصير ، وأن المستقبل للأمويين ، ولذا نجدهما يتشاغلان عن المديح بشعر النقائض بينهما في سوق المربد ، ولما كان شعر النقائض مليئاً بالفحش ، فقد نهاهما عنه الحارث بن عبد

الله المخزومي ، والي ابن الزبير على البصرة ، وكان ورعاً تقياً ، فلم يمتثلا لنهيه ، فهدم داريهما عقوبةً لهما ، إلا أنهما ظلاّ كذلك إلى أن عادت البصرة إلى حوزة الأمويين بعد مقتل مصعب بن الزبير والي العراق على يد عبد الملك بن مروان ، الذي ولّى أخاه (**بِشْرَ بنَ مروان**) عاملاً له على العراق ، فاتَّصل جرير والفرزدق به ، وبمن جاء بعده من الولاة ومدحاهم ، كما أخذا يتَّصِلان بعبد الملك وخلفائه إلى عهد هشام بن عبد الملك : وقد اتصلا بعد (ب**شْر بن مروان**) (٧٣هـ – ٧٥هـ) بخلفه على ولاية العراق (**الحجاج الثقفي**) (٧٥هـ – ٩٦هـ) ، وهو الذي وَصَل جريراً بالخليفة عبد الملك بدمشق حين أرسله إليه مع ابنه محمد بن الحجاج على دوابّ البريد .

والمعروف أن الفرزدق مدح الحجاج في حياته ، فلما مات وتولّى الخلافةَ عدوُّه (**سليمان بن عبد الملك**) سنة ٩٦هـ ، عاد فهجاه بعد موته إرضاء له ، كما أنه كان يمدح (**يزيد بن المهلَّب**) والي العراق لسليمان ، ثم عاد — في عهد عدوِّه (**يزيد بن عبد الملك**) – إلى هجائه إرضاء للخليفة ، نظراً لتمرُّده عليه سنة ١٠١هـ ، فلما سُئل الفرزدق عن سبب انقلابه على ممدوحيه أجاب بقوله : (**نكون مع الواحِد منهم ما كان الله معه ، فإذا تخلَّى منه انقلبنا عليه**) . وربما وسَمَه ذلك بعدم الوفاء ، وبيَّن لنا أثر التكسُّب والانتفاع والانتهازية في طبيعة علاقاته بالناس . وكان جريرٌ من هذه الناحية أوفى منه لممدوحيه . غير أن هجاء الفرزدق أحياناً لبعض الولاة الأقوياء وهربه منهم ، أو الوقوع في قبضتهم وسجنه عقوبة له ، قد يشفع له قليلاً . وكان جرير يتشفَّع للفرزدق عند هؤلاء الولاة فيشفِّعونه ويخرجونه من السجن .

ومما يُرْوَى خطأً أن الفرزدق مدح من الخلفاء الأمويين (**عبد الملك بن مروان**) من سنة ٧٣هـ إلى سنة ٨٦هـ وابنه (**الوليد بن عبد الملك**) (٨٦هـ – ٩٦هـ) من بعده ، من غير أن يرحل إليهما ، وإنما كان يرسل مدائحه فيهما إليهما مكتوبة فيما يبدو ، وهو أمر غير معهودٍ آنذاك عند الشعراء ، وتضيف الرواية أن

الخليفة (**سليمان بن عبد الملك**) (٩٦هـ -٩٩هـ) كان أول خليفة يتصل به الفرزدق ، ثم اتصل من بعده بسائر الخلفاء : (**عمر بن عبد العزيز**) (٩٩هـ – ١٠١هـ) ، و(**يزيد بن عبد الملك**) (١٠١هـ – ١٠٥هـ) ، و(**هشام بن عبد الملك**) (١٠٥هـ – ١٢٥هـ) ، وفي زمنه توفي الفرزدق وجرير معاً سنة ١١٤هـ .

وكان يمدح حزب الأمويين الحاكم ، بطبيعة الحال ، بما يسرّهم ويوافق هواهم ونظريتهم في الحكم (وهي : **النظرية الجبرية**) ، وخلاصتها أن البشر مسيَّرون بإرادة الله ومشيئته وقضائه وقدره ، وهم بالنتيجة غير مخيَّرين في شيء من أمورهم ، ولذلك شاء لبني أمية أن يكونوا هم الحكّام على الناس ، ولو شاء غيرهم من الناس **كبني هاشم أو العلويين** بالذات لكان له ما أراد ، ولكنه لم يشأ أن يكونوا حكاماً على الناس ، وينتج من ذلك أن طاعة بني أمية واجبة على الناس بوصفهم أولي الأمر منهم ، وأن الخروج عليهم ومعارضتهم خروج على قضاء الله وقدره واعتراض عليه يستحق العقاب ، ولعلّ طبيعة العصر كانت تدفع الفرزدق ، بل كانت أحياناً تدفع بعضَ الشعراء المعارضين لبني أمية إلى الاتصال بهم أو بولاتهم لمدحهم بغية التكسب بأشعارهم (**كالطِّرِمَّاح بن حَكِيْم الطائي من الخوارج**) ، أو لإبعاد الشبهات عنهم (**كالكُمَيْت بن زيد الأسدي من الشيعة**) ، أو لصون دمائهم (**كعبيد الله بن قيس الرُّقَيَّات من الزبيريين**) ، ولكن التكسّب كان القاسم المشترك بين شعراء العصر إذا ما استثنينا بعض الشعراء المخلصين لبني أمية (**كعَدِيّ بن الرِّقاع العاملي ، وأبي العباس الأعمى ، وعبد الله بن الزَّبِيْر الأسدي**) ، لأنهم من حزبهم والمتعصِّبين لهم قلباً وقالباً ، ونأخذ **الكميت** (م١٢٦هـ) نموذجاً للشاعر الملتزم بحزب من الأحزاب السياسية المعارضة ، والمتكسِّب في الوقت نفسه ، فقد كان شيعياً شديد التعصب لحق آل البيت في الخلافة ، وله ديوان كامل في مدح آل البيت من بني هاشم يسمى (**هاشميات الكميت**) كان متكتماً عليه في حياته ، وكان يتصل – مع ذلك – بالخلفاء الأمويين وولاتهم ويمدحهم مدحاً رائعاً يذكر فيه نظريتهم الجبرية في الحكم ،

فكأنما كان قلبه في السر مع آل البيت ، ولسانه في العلن مع بني أمية ، أو كأنَّ صراعاً داخلياً في نفسه كان يدفعه إذا أحب الدنيا ومال إليها إلى مدح الأمويين ، فإذا أحب الآخرة ومال إلى الدين دفعه ذلك إلى مدح آل البيت في قصائده الهاشميات ، حتى ذاعت عنه بعد العصر الأموي كما يقولون ، والراجح أنها ذاعت في حياته . ومن مدحه لمسلمة بن عبد الملك وبني أمية قوله :

أبني أُمَيَّةَ إنَّكُمْ أهلُ الوسائلِ والأوامِرْ
ثِقَتِيْ لِكُلِّ مُلِمَّةٍ وعَشِيْرَتِيْ دُوْنَ العَشَائِرْ
أَنتُم مَعَادِنُ للخِلا فَةِ كابِراً من بعدِ كابِرْ

وقد تجنَّب الفرزدق وجرير باعتزالهما ابن الزبير وعماله ما وقع فيه (**ابن قيس الرقيات العامري**) (من قريش) حينما وقف شعرَه ، بعد (**وقعة الحرَّة**) بالمدينة المنورة سنة ٦٣هـ ، على مصعب بن الزبير بالبصرة مادحاً إياه ، ومعبِّراً عن (**النظرية القرشية أو الراشدية في الخلافة**) التي عمل ابن الزبير على إحيائها بثورته ، ومتهماً بني أمية بشق صف قريش وتمزيق وحدتها ، ومحرِّضاً عليهم لاستئصالهم بالشام ، مستعملاً موهبته في شعر الغزل استعمالاً سياسياً فيما يعرَف بـ (**الغزل الكيدي أو الهجائي**) حين راح يطعن في أعراض نساء بني أمية ، ويتغزَّل بهن غزلاً فاحشاً ، فأغاظ ذلك (**عبد الملك بن مروان**) وأغضبه عليه ، فأهدر دمه ، وأمر بملاحقته . ومما قاله في مدح (**مصعب**) والتحريض على بني أمية مثلاً :

إنَّمَا مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ الله ـهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظَّلْمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رحمةٍ ليس فيه جَبَرُوْتٌ ولا بِهِ كِبْرِيَاءُ
يَتَّقِي اللهَ في الأُمُورِ وقد أَفْـ ـلَحَ مَنْ كانَ هَمَّهُ الإِتِّقاءُ
كَيْفَ نَوْمِي علَى الفِراشِ وَلَمَّا تَشْمَلِ الشامَ غارَةٌ شَعْوَاءُ
أَنَا عَنْكُمْ بَنِيْ أُمَيَّةَ مُزْوَرْ رٌ وأنتُمْ في نَفْسِيَ الأَعْدَاءُ
إنَّ قَتْلَى بالطَّفِّ قد أَوْجَعَتْنِي كانَ منكمْ لَئِنْ قُتِلْتُمْ شِفَاءُ

[الشهاب : ما يسقط من جو السماء بصورة سهم ناري لامِع . تجلَّت : تكشَّفت . الجبروت : الطغيان . الكبرياء : الترفُّع . أفلح : فاز . الاتقاء : تجنب ما يغضب الله . الغارة الشعواء : التي تستأصِل كلَّ شيء . مزوَرٌّ : منحرِف . الطفّ : موضع كربلاء]

وكان وضع (**ابن قيس**) ، بعد سقوط دولة ابن الزبير ، شديد الحرج ، لأن الأمويين طلبوه لقتله ، إلا أنه استشفع لدى عبد الملك بأخيه عبد العزيز ، والي مصر ، وبعبد الله بن جعفر بن أبي طالب بالمدينة ، فأعطاه الأمان على دمه ، ولكنه حرمه من أي عطاء ، فمات مذموماً مدحوراً ومعزولاً عن الناس ، وهذا ما كان الفرزدق وجرير يخافان منه لو أنهما مدحا مصعباً بالبصرة وأخاه عبد الله بمكة إبان حكمهما ، نظراً لتوقُّع الشاعرين عودة سلطان بني أمية وشيكاً .

ومن مديح الفرزدق للخليفة (**الوليد بن عبد الملك**) ، بشيء من عناصر نظرية الأمويين الجبرية في الحكم والاحتجاج لهم ، قوله :

أمّا الوليدُ فإنَّ اللهَ أورثَهُ بعلمِهِ فيهِ مُلْكاً ثابِتَ الدِّعَمِ
خلافةً لم تكُنْ غصباً مشورتُها أرسى قواعدَها الرحمنُ ذو النِّعَمِ
كانتْ لعثمانَ لم يَظْلِمْ خلافتَها فانْتهكَ الناسُ منهُ أعظمَ الحُرَمِ

ويلاحظ في هذه الأبيات أن الفرزدق يدافع عن حق الأمويين في الخلافة بثلاثة أمور : **الأول –** أن الله تعالى قد اختار الوليد من سائر خلقه لعلمه المسبَّق والغيبي بأنه خير من يتولّى الخلافة : لتَقوَاه وعدله وقدرته الإدارية وحفظه للرعية ولشرائع رب العالمين . **والثاني –** أنها مُنِحَتْ للأمويين بقضاء الله وقدره وتأييده ، وكانت بيعته سلسة من غير قهر ولاغصب وإنما برضا الناس وموافقتهم . **والثالث –** أنهم ورثوا هذه الخلافة عن عثمان (ر) الذي قُتِل مظلوماً فهي حقُّه الذي سُلِبَ منه ، وهي تعويضٌ عن حق دمه الذي سُفِك – وهو محرَّم بغير حقِّه – لورثته من عَصَبَتِهِ (يعني : الأمويين) الذين هم رهطه وبنو عمومته ، فهم أصحاب هذا الحق فيها بعد مقتله .

ومدح جريرٌ الوليدَ نفسَه بمثل قوله :

إنَّ الوليدَ هوَ الإمامُ الْمُصْطَفَى بالنَّصْرِ هُزَّ لِوَاؤُهُ والْمَغْنَمِ

ذُو العَرْشِ قَدَّرَ أنْ تَكُونَ خليفَةً مُلِّكْتَ فاعْلُ على المنابِرِ واسْلَمِ

وفي هذا تأييد واحتجاج لحكم بني أمية بأنه قَدَر مقدّر من الله تعالى ، لأنه هو الذي اصطفاه أي اختاره من بين كل الناس ، وهو الذي أيَّده بالنصر على أعدائه في كل مكان ، وقد طلب جرير إلى الوليد أن يقف على المنبر خطيباً أمام الناس ، لأن المنبر رمز السيادة والحكم ، ثم يدعو له بالسلامة لما في طول بقائه وسلامته من خيرٍ للرعية .

٥- الفخر عند الفرزدق وجرير :

كان الفرزدق ينتمي إلى بيت عريق في الشرف في الجاهلية والإسلام : فقد كان جده (**صَعْصَعَة**) سيد قومه ، وقد افتدى من الوأد في الجاهلية عدداً كبيراً من البنات ، وكان من المجيرين لمن التجأ إليه ، كما كان أحد أفراد وفد تميم إلى النبي(ص) سنة ٩هـ (عام الوفود) مع الزبرقان بن بدر وغيره ، وكان أيضاً جواداً كريماً ، وقال فيه الفرزدق مفتخراً :

أبي أَحَدُ الغَيْثينِ صعصعةُ الذي متَى تُخْلِفِ الجَوْزاءُ والنَّجْمُ يُمْطِرِ

أجارَ بناتِ الوائدين ومَنْ يُجِرْ على القبرِ يُعْلَمْ أنَّه غيرُ مُخْفِرِ

وأما (**غالب**) ، والد الفرزدق ، فقد كان في غاية الكرم ، لأنهم يروون عنه أنه ذَبَح ، في إحدى السنين الشديدة ، عدداً من الإبل لإطعام الناس ، فذبح سيد آخر من القبيلة عدداً أكبر مما ذبح لهم ، فما كان منه إلا أن ذبح للناس كل ما عنده من الإبل وكانت أربعمئة (وفي رواية أنها كانت مئة فقط) . وكان الفرزدق يجير بعد موت أبيه كل من استجار بقبره أياً ما كانت مشكلته أو حاجته أو مطلبه ، فيجيره ويلبي له مطلبه إكراماً لوالده . كما كان الفرزدق نفسه سيِّداً في قومه وكريماً كوالده وجده ، ولذلك نجد فخره بنفسه وبهما في شعره صادقاً وحقيقياً ، ينثال على

لسانه انثيالاً ، لأنه طبع أصيل موروث فيه عن بيته ، فهو إذن واصف لواقع حاله وحقيقته من غير ادعاء ، خلافاً لفخر جرير الذي كان بيته وضيعاً في رهطه (**كليب بن يربوع**) ، وكان مبخَّلاً ، وكان أبوه عطية يَمَصّ – في أوقات الشدَّة – الحليب من ضرع العنْزَة أو الشاة مصّاً لئلا يسمع سامع صوت الحلْبِ والشَّخْبِ في الإناء فيسأله شيئاً منه ، كما أنه كان راعياً للحمير . ولذلك كان الفرزدق يوصف دائماً بالتفوق على جرير في **موضوع الفخر** ، مع أن النقاد القدماء كانوا يقولون إن **أفخر بيت** قديم قالته العرب هو قول جرير في الفخر على الشاعر الراعي النميري :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُوْ تَمِيْمٍ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

والنقطة التي قد يكون جرير مساوياً فيها للفرزدق في الفخر هي افتخار كلٍّ منهما بمآثر قبيلتهما الشاملة ، لأنها جامع مشترك بينهما . وأما النقطة التي يتفوق بها جرير على الفرزدق في الفخر فهي براعته الفنية فيه ومبالغته المعنوية ، وأما الصدق في الفخر فيبقى للفرزدق بلا أدنى شكّ ، لأن جريراً لا يملك في نفسه ولا آبائه الأدنَيْن ولا عشيرته من المفاخر ما يوازي به مفاخر الفرزدق .

٦– الغزل عنده وعند جرير :

كان الفرزدق يقرّ على نفسه ، صراحةً ، بالتقصير في ميدان الغزل ، فقد قال مرة مقارناً بين غزله وغزل جرير : (**ما أحْوَجَهُ مع عِفَّته إلى صلابة شعري ، وما أحوجني مع ما ترون – يعني مجونَهُ مع النساء وفسقه – إلى رقة شعره**) ، وكان يتشبَّه في فسقه بامرئ القيس في الجاهلية ، ويمكن رد سبب تقصير الفرزدق في الغزل إلى أنه كان جِلْفاً غليظَ الطبع ، جافَّ العاطفة ، مِزْواجاً مِطْلاقاً ، فكانت النساء تَعَافه ، وكان ما إنْ يتزوجُ بامرأة من بنات القبائل حتى تَنْشُز عليه ، وتطالبه بالطلاق ، وقد تزوَّج (**النَّوَار**) ، وكانت ابنة عَمٍّ له ، بالحيلة ، إذ جعلته وكيلاً لها – بحكم القرابة – حين تقدَّم إليها خاطبٌ أعجبها ، فما كان من الفرزدق إلا أن زوَّجها لنفسه بموجب هذه الوكالة ، فظلَّت تغاضبه وتنشز عليه حتى فرَّت منه أخيراً ، وبعد أن أنجبت منه عدداً

من الأولاد ، إلى عبد الله بن الزبير ، الخليفة بمكة أيام تمرُّده على الأمويين ، وكانت البصرة تابعة له ، وشكته إليه ، فطلَّقها ، فلما بانت منه قال شعراً يعبِّر فيه عن شدَّة ندمه على طلاقها :

نَدِمْتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لَمّا غَدَتْ منِّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وكانَتْ جَنَّةً فخرجتُ منها كآدَم حينَ أخرجه الضِّرَارُ

فخطب فتاة نصرانية فماتت قبل الدخول عليها ، حتى اضطر إلى الزواج من أمة سوداء ، فأنجبت له ابنة سماها (مكية) ، فكانت من أحب أولاده إليه . وكانت النَّوَار قد أنجبت للفرزدق أربعة من البنين هم (**لَبطَة** ، **وسَبَطَة** ، **وخَبَطَة** ، **ورَكَضَة**) ، وقد علَّق الدكتور شوقي ضيف على هذه الأسماء قوله : (**وفي تسميته لأبنائه هذه الأسماء ما يدلّ من بعض الوجوه على غِلَظ نَفْسِه**) .

ومما يدلّ على فجور الفرزدق وسوء سيرته قوله يصف مغامرة له مع بعض النسوة وقد بات ليلته عند اثنتين تسكنان في قصر مرتفع ، فلما أوشك الصبح أن يتنفس بنوره ربطتاه بحبل وأنزلتاه من علو شاهق :

هُما دَلَّتانِيْ من ثمانينَ قامَةً كما انقَضَّ بازٍ أَقْتَمُ الرِّيْشِ كاسِرُهْ

فلَمّا اسْتَوَتْ رِجْلايَ بالأرْضِ قالَتا : أَحَيٌّ يُرَجَّى .. أَمْ قتيلٌ نُحاذِرُهْ

فقلتُ : ارفَعا الأسبابَ لا يَشْعُرُوا بنا وولَّيْتُ في أعْجازِ لَيْلٍ أُبادِرُهْ

فلما سمع جرير ذلك عَيَّره به فقال :

تَدَلَّيْتَ تَزْنِيْ مِنْ ثَمَانِيْنَ قَامَةً وَقَصَّرْتَ عَنْ بَاعِ العُلا وَالْمَكَارِمِ

أمّا جرير فكان عفيفاً في حياته وفي غزله إلى حد أن النقاد القدماء لاموه حين طرقت المحبوبة بابه ليلاً ، فلما رآها صرفها بأدب ، ولم يسمح لها بالدخول في مثل ذلك الوقت المريب ، وأغلق بابه دونها ، فعدوا صنيعه جفاء منه ، وعبر عن ذلك بقوله :

طَرَقَتْكَ صائدةُ القلوبِ وليسَ ذا حِيْنَ الزيارةِ فارجِعِيْ بِسَلامِ

ويعترف الفرزدق بتهتكه وفسقه طوال حياته في مثل قوله هاجياً إبليس ومعلناً توبته بعد السبعين من عمره :

أطَعْتُكَ يا إِبْلِيْسُ سبعينَ حِجَّةً فَلَمّا انتهى شَيْبِيْ وتَمَّ تَمَامِي

فَرَرْتُ إلى رَبِّيْ وأَيْقَنْتُ أنَّنِيْ مُلاقٍ لأيّامِ الْمَنُونِ حِمَامِي

وَما أنتَ يا إِبْلِيْسُ بالمرءِ أبتغِيْ رِضاهُ ولا يَقْتادُنِيْ بِزِمامِ

والطريف في هذه الأبيات أنها من قصيدة قالها في هجاء إبليس ، وأتى الحسنَ البصري في المسجد ، وقال له : إني قد هجوتُ إبليس ! فقال له الحسن : كيف تهجوه وعن لسانه تنطق ؟ وأبى أن يسمعها . فتهدده الفرزدق بقوله : إن لم تسمعها فسأصيح في المسجد أن الحسن يكره هجاء إبليس ، فأسكته وسمعها .

ويذهب بعض النقاد إلى القول إن **أغزل بيت** قالته العرب في القديم كان بيت جرير الذي يقول فيه :

إنَّ الْعُيُوْنَ الَّتِيْ فِيْ طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لِمْ يُحْيِيْنَ قَتْلاَنَا

٧– المدارس الغزلية في العصر الأموي :

والجدير بالذكر – هنا – أن الغزل كان ، في العصر الأموي ، ثلاثة أنواع :

(١) الغزل الحضري

وهو الغزل الذي أنتجه شعراء الحجاز في الحواضر الكبرى الثلاث (مكة والمدينة والطائف) في العصر الأموي ، وينسَب أحياناً إلى (**عمر بن أبي ربيعة المخزومي**) (م٩٣هـ) مؤسس هذا اللون من الغزل ، وكانت له سماتٌ وخصائص متميِّزة . وقد سار على نهجه فيه عدد من كبار الشعراء في ذلك العصر (**كالأَحْوَص الأنصاري ، والعَرْجِيّ الأموي ، وعبيد الله بن قيس الرقيات** في مرحلته الشعرية الأولى) ، وكان عمر مقتصراً في كل شعره على الغزل ومختصاً به ، وكانت القصيدة عنده من أولها إلى آخرها في الغزل ، وأما أتباع مدرسته الغزلية هذه

فقد كان الغزل هو الغالب عليهم . ويأتي الاختصاص عند الشعراء بنوع شعري واحد للمرَّة الثانية في تاريخ أدبنا العربي بعد اختصاص الشاعرة المخضرمة (**الخنساء السُّلَمِيَّة**) بالرثاء .

ومن أبرز سمات الغزل في هذه المدرسة :

١- تعدُّد محبوبات الشاعر اللائي يذكرهن في شعره الغزلي (حتى زاد عددهن عند عمر على الثلاثين ، منهن : نُعْم ، والرَّباب ، وهند ، وعفراء ، وزينب ، والنَّوَار ، وفاطمة ، وجَبْر ، وأسماء ، والقَتُول ، وسُلَيْمَى ، والثُّرَيّا ، وعُتَيْمة ، وجُمْل ، وليلى ، وعَبْدَة ، وسُعْدَى ، إلخ .) .

٢- كان الهدف من هذا الغزل تلميع صورة المرأة العربية التي تفوَّقت عليها صورة المرأة الأعجمية إثر الفتوحات الإسلامية (حتَّى حذَّر الخليفة عمر - في وقت مبكِّر - من تغلُّبِهن بجمالهن على قلوب الشباب العربي) ، وخاصَّة على مستوى الطبقة العليا من المجتمع العربي آنذاك .

٣- آنِيَّة عواطف الحب عند شعراء هذه المدرسة ، نظراً لتقلُّبها تَبَعاً لما يرون من جمال ، لأنهم كانوا طُلاّب جمالٍ قبل كلِّ شيء . ومن يقرأْ أشعارهم في وصف المعاناة يجد تعبيرهم فيها شبيهاً إلى حدٍّ كبيرٍ بوصف العذريين لمعاناتهم) .

٤- تصوير شعراء هذه المدرسة أنفسهم معشوقين تلاحقهم محبوباتهم بالقدر الذي يُلاحقونهن به .

٥- كان في غزل شعراء هذه المدرسة صراحة وحِسِّيّة وتحرُّرٌ في الوصف والتعبير عن العلاقة بمحبوباتهم ، لأنهم كانوا يرون في المحبوبة مصدر متعة أو إمتاع لهم ، كما أن المجتمع الحضري يبقى أكثر تحرُّراً من المجتمع المحافظ في الأرياف والبوادي .

٦- كان غزل شعراء هذه المدرسة أميَلَ إلى الهزل وروح المرح والتفاؤل .

٧- غنَّى مغنو الحجاز ومغنياتُه بشعر هذه المدرسة الغزلية أكثر مما غنوا بشعر الغزل التقليدي أو العذري .

ومن نماذج هذا الغزل قول (عمر بن أبي ربيعة) في محبوبته (هند) :

ليتَ هنداً أنْجزَتْنا ما تَعِدْ وشَفَتْ أنفُسَنا مِمَّا تَجِدْ

واسْتَبدَّتْ مرَّةً واحِدَةً إنَّما العاجِزُ مَنْ لا يَسْتَبِدْ

غادَةٌ تَفْتَرُّ عَنْ حينَ تَجْلُوهُ أَقاحٍ وبَرَدْ

أَشْنبِ ـَـِها

ولها عينانِ في طَرْفَيْهِما حَوَرٌ وفي الجِيْدِ غَيَدْ

قُلْتُ مَنْ أنتِ فقالَتْ أنا شَقَّهُ لوَجْدُ وأبلاهُ الكَمَدْ

مَنْ

قلتُ أهلاً أنتُمُ بُغْيَتُنا فتَسَمَّيْنا فقالتْ أنا هِندْ

إنَّما أهلُكِ جيرانٌ لنا إنَّما نحنُ وهمْ شيءٌ أَحَدْ

(٢) غزل البوادي

ويعرف أيضاً باسم (**الغزل العذري**) نسبة إلى بني عُذْرَة ، وهم قبيلة يمنية كانت تنْزِل في وادي القرى شمالي الحجاز ، عُرِف أبناؤها برقة القلوب ، وأنهم إذا عشقوا وفَوْا وأخلصوا لمن يحبون ، وأنهم يكتمون حبهم حتى الموت ، وأنهم لا يرتكبون محرَّماً في علاقتهم مع من يحبون ، ولذا وُصِف غزلهم بأنه (عفيف) . وقد امتدّ هذا النوع من الغزل إلى بوادي الحجاز ومحيطها . وأشهر شعراء هذا الغزل (**جميل بن مَعْمَر العذري**) ، الذي يعرف اختصاراً بالإضافة إلى اسم محبوبته الوحيدة باسم (**جميل بُثَيْنَة**) (م٨٢هـ بمصر) ، وهو مؤسس هذا اللون من الغزل في العصر الأموي ، وكانت له أيضاً سماتٌ وخصائص يتميَّز بها من الغزل الحضري . وقد تبعه في هذا الغزل عدد من الشعراء الذين شكلوا مدرسته ، ومن أبرزهم : (**مجنون ليلى = قيس بن المُلَوَّح العامري**) ، و(**قيس لبنى = قيس بن ذَرِيْح الكِنَاني**) و(**كُثَيِّر عَزَّة = كُثَيِّر بن عبد الرحمن الخُزَاعِيّ**) ، وكان الثلاثة الأُوَل أيضاً مختصين بشعر الغزل وحده ، أما كثيِّر فقد غلب عليه شعر الغزل .

ومن أبرز سمات هذه المدرسة الغزلية :

١- توحُّد المحبوبة ، فالشاعر العذري لا يعشق سوى محبوبة واحدة في حياته ، ويزعم أنه كان يحبّها قبل خلقهما ، وأنه سيبقى يحبّها حتَّى بعد موتهما ، ولذا عُرِف كل منهم بامرأة واحدة لا يتعدّاها ، حتى أضيف اسمها إلى اسمه ، كما رأينا ، واشتهر بها .

٢- ديمومة عواطف الحب وثباتها منذ اللحظة الأولى إلى لحظة الموت ، وواضح ما في ذلك من وفاء وإخلاص للمحبوبة .

٣- تصوير الشعراء أنفسهم دوماً بأنهم هم الذين يسعون وراء المحبوبة ويطلبونها .

٤- كان تعبير الشعراء في وصف محبوباتهم تعبيراً محافظاً إلا فيما ندر ، لأنهم كانوا يرون في محبوباتهم شيئاً مقدساً وطاهراً ينبغي ألا يُخْدَش بشيء .

٥- كان غزل العذريين يتميَّز بأنه أميَلُ إلى الجِدّ ، وفيه صرامةٌ وروح تشاؤمية .

٦- كان الغناء بشعر العذريين الغزلي أقل حظاً من الغناء بشعر الحضريين الغزلي .

٧- الإكثار من وصف المعاناة والصِّدْق فيه .

ومن نماذج هذا الشعر عند (جميل بثينة مثلاً) قوله في بثينة :

هِيَ السِّحْرُ إلا أنَّ للسِّحْرِ رُقْيَةً ... وإنِّيَ لا أُلْفِي لها الدَّهْرَ راقِيَا

أُحِبُّ من الأسماءِ ما وافَقَ اسْمَهَا ... وأشبَهَهُ أو كان منهُ مُدانِيَا

وَدِدْتُ على حُبِّ الحياةِ لَوَ انَّها ... يُزَادُ لها في عُمْرِها من حيَاتِيَا

وأنتِ التي إنْ شِئْتِ أَشْقَيْتِ عِيْشتي ... وإنْ شِئْتِ بَعْدَ اللهِ أَنْعَمْتِ بالِيَا

وأنتِ التي ما مِنْ صَدِيْقٍ ولا عِدَاً ... يَرَى نِضْوَ ما أَبْقَيْتِ إلاّ رَثَى لِيَا

وما زِلْتِ بي يا بَثْنَ حتَّى لَوَ انَّنِيْ ... مِنَ الْوَجْدِ أَسْتَبْكِي الْحَمَامَ بَكَى لِيَا

إذا خَدِرَتْ رِجْلِيْ وقِيْلَ شِفَاؤها ... دُعَاءُ حَبِيْبٍ كُنْتِ أنتِ دُعائِيَا

(٣) الغزل التقليدي

وهو ذلك الغزل الذي كان الشعراء يفتتحون به قصائدهم التقليدية ، وخاصة في المدح والفخر ، وهو يقع في مطالع القصائد المركبة عند شعراء العرب عموماً ، ويكون – في الغالب – غزلاً مصنوعاً متكلَّفاً ، ولا يعبِّر عن عواطف حقيقية ، وكان الشعراء يأتون به تحقيقاً لتقليد قديم في القصيدة هو ما ذكره (**ابن قتيبة**) (م٢٧٦هـ) في مقدمة كتابه الشهير (**الشعر والشعراء**) ، ويتمثَّل في شد الأسماع وإثارة الانتباه عند جمهور المستمعين ، لما في طبيعة الرجال من إلف النساء ومحبتهن المغروزة في القلوب ، وكان أغلب الشعر العربي الجاهلي والإسلامي والأموي يُنْشَد إنشاداً في المجالس ولا يُقْرأ . ولذلك لم يكن هذا اللون من الغزل يعبِّر بالضرورة عن تجربة حبٍّ أو عشقٍ حقيقية ، ولذا كان **أغلبه** يعبِّر عن تجربة حبٍّ مجرَّدة أو افتراضية أو مثالية ، ولكن هذا لا ينفي وجود حالات منه تعبِّر عن عواطف أو تجارب حقيقية عند الشاعر . وقد كان غزل جرير والفرزدق ، في مطالع قصائدهما ، على وجه الإجمال من هذا اللون التقليدي . ويلفتُ انتباهَنا في ديوان الفرزدق ندرةُ افتتاحِه قصائدَه بهذا اللون من الغزل ، نظراً لأنه كان يهجم مباشرة على موضوعه ، وإن افتتح إحدى قصائده بالغزل كان غزله مستثقلاً ، ولذا نسوق هنا أبياتاً من مطلع غزلي لجرير في إحدى قصائده ، لأنه كان دائماً يفتتحها بهذا اللون من الغزل ، يقول :

وَلَوْ أَنَّها شَاءَتْ شَفَتْنِيْ بِهَيِّنٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَا الطَّبِيْبَ الْمُدَاوِيَا
فَإِنَّكِ إِنْ تُعْطِيْ قَلِيْلاً فَطَالَمَا مَنَعْتِ وَحَلأْتِ الْقُلُوْبَ الصَّوَادِيَا
فَيَا حَسَرَاتِ الْقَلْبِ فِيْ إِثْرِ مَنْ يُرَى قَرِيْباً وَيُلْفَى خَيْرُهُ مِنْكَ نَائِيَا

[حَلأتِ القلوب الصوادي : منعتِ القلوب العِطَاش من الورود على الماء ، كما تمنع الإبل]

٨– المديح عند الفرزدق وجرير :

كان جرير يتفوَّق في المديح على الفرزدق ، لأن الفرزدق كان يرى نفسه شريفاً جليلاً ، لا يقل منْزِلة في الشرف عن عظماء عصره وكبرائهم ، ولذا كان يمدح الولاة

والخلفاء مدح النِّدّ للند ، وهذا غير محمود في شعر المديح التكسُّبِيّ ، خلافاً لمدح جرير الذي كان يعرف قدر نفسه بالقياس على كبراء عصره ، وقد كان ينطلق في مدحه من شدَّة التواضع للممدوح ، وربما جاز لنا القول إنه كان يمدح الولاة والخلفاء انطلاقاً من تواضع أصله ورهطه ، أي بضد ما هو فيه ، فيحسن مدحهم ، حتى قال بعض النقاد القدماء إن **أمدح بيت** قالته العرب قديماً هو قول جرير في الخليفة (**عبد الملك بن مروان**) (٦٥هـ – ٨٦هـ) والأمويين :

أَ لَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المطايا وأندَى العالَمينَ بُطُونَ راحِ

ويذكر القدماء مثالاً على سوء مدح الفرزدق للخلفاء حين قدِم على الخليفة (**سليمان بن عبد الملك**) (٩٦هـ – ٩٩هـ) ، فسأله أن ينشده شعراً يمدحه فيه ، فأنشده قصيدة من ثلاثة وتسعين بيتاً قدَّم لمدحه فيها بفخر عظيم بقومه (والفخر مدح للذات) في تسعين بيتاً على شاكلة قوله :

تَرَى الناسَ ما سِرْنا يَسِيْرُوْنَ خَلْفَنا وَإِنْ نحنُ أَوْمَأْنا إلى الناسِ وَقَّفُوا

ومدح الخليفة بثلاثة أبيات منها فقط ، فقيل له : ما مدحتَ أميرَ المؤمنين إذْ فَخَرتَ بقومِك ! [والحقيقة أن هذه القصيدة كانت في هجاء جرير والفخر بقومه ، وهي تتألَّف من ١١٣ بيتاً ، يحمل البيت المذكور رقم ١٠٠ بينها ، ولم يرد فيها أيُّ ذكرٍ للخليفة سليمان] واغتاظ سليمان منه ، ثم التفت إلى الشاعر **نُصَيْب بن رَبَاح** (مولى عمِّه عبد العزيز بن مروان) ، وهو من الشعراء السود ، وكان حاضراً في المجلس ، وقال له : قُمْ فأَنْشِد مولاك ، ويلَك ! فقام فأنشد قصيدة منها قوله :

أَقُولُ لِرَكْبٍ صادِرِيْنَ لَقِيْتُهمْ قِفَا ذاتِ أَوْشالٍ وَمَوْلاكَ قارِبُ :
قِفُوا خَبِّرُونِيْ عن سليمانَ إنَّنِيْ لِمَعْرُوفِهِ من أَهْلِ وَدّانَ طالِبُ
فَعاجُوا فأَثْنَوْا بالذي أنتَ أهلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عليكَ الحَقائِبُ

فقال له سليمان : أنتَ أشعرُ أهلِ جِلْدَتِكَ (يريد الموالي السود من المسلمين) ، وصرف له جائزة مجزية وحرم منها الفرزدق ، لشدة فخره في مدحه ، وشدة تواضع نُصَيْبٍ فيه

أمام مقام الخليفة ، وهكذا غلبه شاعر من شعراء الموالي في موضوع المدح : فكيف بجرير الذي وطَّد نفسه من بداية شهرته على الرحيل لمدح الخلفاء ، حتى إنه ليقال إنه رحل إلى (**يزيد بن معاوية**) (٦٠-٦٤هـ) بدمشق قبيل وفاته ، إلا أنه كان في غمار الشعراء (ونحن نستبعد هذه الرحلة ، نظراً لظروف الصراع والاضطراب التي سادت فترة خلافة يزيد هذا) ، ثم اتصل بعد القضاء على ابن الزبير بـ (**بشر بن مروان**) والي العراق (٧٣-٧٥هـ) ، ثم بـ (**الحجاج الثقفي**) خلفِه على العراق بالكوفة (٧٥هـ - ٩٦هـ) ومدحه بأروع الأماديح ، فوصله بـ (**عبد الملك بن مروان**) في دمشق ليمدحه ، فكان يرحل إليه حتى توفي ، ثم رحل إلى كل من تولى الخلافة بعده من بنيه . ومما مدح به جريرٌ الحجاجَ قوله :

مَنْ سَدَّ مُطَّلَعَ النِّفَاقِ أمْ مَنْ يَصُولُ كصَولَةِ الْحَجَّاجِ
عليهمُ
مَنَعَ الرِّشَا وأَراكُمُ سُبُلَ الْهُدَى والْلِصَّ نَكَّلَهُ عنِ الإِدْلاجِ
ولقَدْ كَسَرْتَ سِنانَ كُلِّ مُنافِقٍ ولقَدْ مَنَعْتَ حَقائبَ الْحُجَّاجِ

وقال الفرزدق في مدح الحجاج أيضاً بمعانٍ قريبة من ذلك :

لقد ضَرَبَ الحجَّاجُ ضَرْبَةَ حازِمٍ كَبَا جُنْدُ إبْلِيْسٍ لَها وتَضَعْضَعُوا
وخرَّتْ شياطِينُ البِلادِ كأنَّها مَخَافَةَ أُخْرَى في الأَزِمَّةِ خُضَّعُ
فَلَمْ يَدَعِ الحجَّاجُ من ذي عَداوَةٍ من الناسِ إلا يَستكينُ ويَضْرَعُ
إذا حارَبَ الحجَّاجُ أيَّ مُنَافِقٍ عَلاهُ بسَيْفٍ كُلَّما هُزَّ يَقْطَعُ

٩- الرثاء عند الفرزدق وجرير :

كان طبع الفرزدق خشناً جافياً إلى درجة أنه لم يكن يطيعه أو ينساق له ، كي يعبِّر عن مكنونات نفسه في ساعات الحزن عند فَقْدِ غالٍ أو عزيز عليه ، ربما لعدم تأثير بر الموت فيه ، خلافاً لطبع جرير الذي كان ينفعل بهذا الفَقْدِ بسهولة ويسر ، لأن دمعة جرير كانت قريبة سهلة ، لأنه كان يتأثر بالمواقف الإنسانية

ويتفاعل معها ، ولذلك كان رثاء الفرزدق ثقيلاً خشناً خالياً من العواطف الجيّاشة المؤثِّرة ، ولهذا نجده يأمر النساء ، حين ماتت زوجته النوار ، بأن يبكين عليها وينُحْنَ بشعر جرير الرقيق الذي قاله في رثاء زوجته أم حَزْرَةَ ومنه قوله :

لَوْلا الحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبارُ وَلَزُرْتُ قَبْرَكِ والحبيبُ يُزارُ

وَلَهَّتِ قَلْبِيْ إِذْ عَلَتْنِيْ كَبْرَةٌ وَذَوُو التَّمائِمِ من بَنِيْكِ صِغارُ

(**ولَّهتِ قلبي : أذهبتِ عقله من شدّة الحزن . الكبرة : التقدُّم في السنّ . التمائم : جمع تميمة ، وهي الرُّقْيَة**)

١٠– الهجاء والنقائض عند الفرزدق وجرير :

كان جرير سابق الشعراء في الهجاء والنقائض ، بلا منازِع ، في العصر الأموي ، وقد أخمل – فيما يروى – ثمانين شاعراً ممن تحدَّوه أو هجوه أو تعرَّضوا له ، وهو يفخر ببراعته هذه بمثل قوله :

أعدَدْتُ للشعراءِ سُمَّاً ناقِعاً فسَقَيْتُ آخِرَهُمْ بكأسِ الأوَّلِ

ومما يثبِتُ تفوُّق جرير على شعراء عصره في الهجاء هذا الحُكْمُ النقديُّ الشعريّ الذي أصدره (**مروان بن أبي حفصة**) – وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية – على كلّ من الفرزدق وجرير حين قال :

ذَهَبَ الفرزدقُ بالْفَخَارِ وإنَّمَا حُلْوُ القَرِيْضِ ومُرُّهُ لِجَرِيرِ

[ذهب به : استولى عليه وانفرد به . القريض : الشعر . حلو القريض : المدح والغزل . مر القريض : الهجاء والرثاء]

وقد نُسِب إلى جرير **أهجى بيت** قديم قالته العرب ، وهو في خطاب الراعي النميري ، الذي كان – في رأي ابن سلام – أحدَ أربعة فحول من الشعراء في العصر الأموي :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كَعْباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

كما أن جريراً لم يلتفت إلى كثير غيرهم (ومنهم بشار بن برد الأعمى ، المولود بالبصرة سنة ٩٥هـ ، وكان فتى صغيراً ، وكان جرير شيخاً كبيراً) ، وكان جرير سيد النقائض المشهورة في عصره ، ويقال إن الفرزدق هو وحده الذي استطاع التصدي لجرير بقوة على مدى خمسين سنة ، فقد بدأت النقائض بينهما سنة ٦٣هـ واستمرَّت تلتهب وتزيد طوال فتنة ابن الزبير (٦٣هـ – ٧٣هـ) ، وكانا صنوين في الفحولة الشعرية ، ومن الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين عند ابن سلام ، وكان جرير يتغلَّب في أكثر الأحيان على الفرزدق في النقائض ، لأنه كان يولِّد المعاني الهجائية القاتلة ويخترعها اختراعاً يعجب الناس ويفاجئ الفرزدق بها ، ويكثر من ترديدها ، حتى يظن الناس أنها حقائق ثابتة وكانت معاني هجاء جرير للفرزدق تدور في ديوانه كلِّه حول المعاني البارزة التالية :

١– اتهامه بالفجور والفسق مستغلاً اعترافاته الشعرية على نفسه بذلك ، حتى نرى الحسن البصري يقول للفرزدق ، حين سمع هجاءه لإبليس وسمع إعلان توبته عن متابعته بعد أن سار في ركابه سبعين سنة : (**كيف تهجوه وعن لسانه تنطِق ؟!**) .

٢– اتهامه بأنه من ذُرِّيّة بعض القُيُون (**الحدادين**) الذين كانت تمتلكهم عشيرته ، بمثل قوله :

وأنتَ ابنُ قَيْنٍ يا فَرَزْدَقُ فازدَهِرْ بكِيْرِكَ إنَّ الكِيْرَ للقَيْنِ نافِعُ

فإنَّكَ إنْ تَنْفُخْ بكِيْرِكَ تَلْقَنَا نَعُدُّ القَنَا والْخَيْلَ يَوْمَ نُقارِعُ

٣– اتهامه بالتخاذل عن إغاثة أخته (جِعْثِن) التي اعتدى عليها أحد الأشرار بأن وضع يده على صدرها ودفعها فسقطت أرضاً ، وضخَّم جرير المسألة وجعل منها قضية اعتداء على شرفها ظلماً بغير حق ، لأنها – كما يروى – كانت امرأة صالحة ، كقوله :

أَنَسِيْتَ وَيْلَ أبيكَ غَدْرَ مُجَاشِعٍ وَمَجَرَّ جِعْثِنَ لَيْلَةَ السِّيْدَانِ

٤- تعييره بنبو سيفه حين كان مع (سليمان بن عبد الملك) ، فأُتِي إليه بأسرى من الروم ، فطلب سليمان إلى الفرزدق أن يضرب عنق أحدهم بسيف ، فلم يصنع شيئاً ، لأنه إنما يضرب - في رأي جرير - بسيف آبائه من القيون ، الذين يجيدون صناعة السيوف لا الضربَ بها ، وليس بسيف الفرسان من مجاشع . وقال الفرزدق يعتذر من نبو سيفه :

وما نَبَا السَّيْفُ من جُبْنٍ ولا دَهَشٍ عندَ الإمامِ ولكِنْ أُخِّرَ القَدَرُ

فعيَّره جرير بهذه الحادثة فقال :

وهلْ ضَرْبَةُ الرومِيِّ جاعِلَةٌ لكُمْ أباً من كُلَيْبٍ أوْ أباً مِثْلَ دارِمِ

ثم هجاه من جانب مضادّ تماماً فقال :

ولا نَقْتُلُ الأسْرَى ولكِنْ نَفُكُّهُم إذا أَثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ الْمَغارِمِ

٥- تعييره بأن مجاشعاً رهط الفرزدق غدروا بذمة الزبير بن العوام ، ابن عمة النبي (ص) ، وهو عائد من البصرة قبيل نشوب موقعة الجمل سنة ٣٦هـ ، حين استجار بهم فقتلوه ، وليس هذا الصنيع من أخلاق العرب في شيء ، فقال :

إنِّي تُذَكِّرُنِي الزُّبَيْرَ حَمَامَةٌ تَدْعُو بِمَجْمَعِ نَخْلَتَيْنِ هَدِيْلا

قالتْ قُرَيْشٌ : ما أَذَلَّ مُجَاشِعاً جاراً وأَكْرَمَ ذا القَتِيْلَ قَتِيْلا

٦- قلبه فخر الفرزدق بذبح أبيه كل إبله (وكانت مئة أو أربعمئة) بأن فسَّر ذلك بعجزه عن لقاء الفرسان في ساحات القتال ، فتوجه بسيفه إلى الإبل التي لا حول لها ولا قوة ، فأنحى عليها به (وهذا من تقبيح الحسن) .

٧- تعييره بالوقوف مع الأخطل التغلبي ضده في النقائض وهو التميمي مثله .

وقد ذكر جرير ، في معرض الدفاع عن تميم ، مخاطباً الأخطل التغلبي ، ثلاث نقاط ضعف ، وهي جميعاً طعن في الفرزدق ورهطه من بني تميم (ونلاحظ تركيزه في التعيير على النقطتين الثالثة والخامسة) :

أَوَجَدْتَ فِيْنَا غَيْرَ غَدْرِ مُجَاشِعٍ وَمَجَرَّ جِعْثِنَ وَالزُّبَيْرَ مَقَالا ؟!

وكان الفرزدق وجرير قد استعملا فن الهجاء على طريقة النقائض الشعرية التي كانت معروفة قبلهما منذ أواخر الجاهلية ، غير أن نقائض جرير والفرزدق جعلت هذا الفن ذا طابع عصبي شخصي يسعى به صاحبه إلى التسلية والمتعة والتنافس الفردي بغية إثارة إعجاب الناس بفنه الشعري وبراعته في الإبداع ، وبغية استعراض قدراته وطاقاته ومواهبه في ميدان الشعر ، وكانت هذه النقائض لملء أوقات الناس في سوق المربد بالبصرة خاصة وتسليتهم ، وكان الناس يشجِّعون هذا على ذاك ويحرِّضون أحدهما على الآخر أو يحرِّشون بينهما من أجل الاستمتاع بهجوم كل منهما على الآخر أو بردوده ، حتى إن بعض ولاة بني أمية – فيما بعد – كالحجاج الثقفي كان يوقع بين الشعراء للتمتع بمثل ذلك ، وهذا لا يعني عدم تأثير شعر النقائض في المهجوِّين به ، بل إن هذا التأثير كان يخيف الشعراء كما يخيف أقوامهم أو قبائلهم ، لما يلحق بهم من عار ، إلا أنه يظل في إطار من السلم ، ولا يخرج إلى طور الفعل ، وويلٌ لأحد الشعراء من جرير إذا وقف مناصراً لأحد مهجوِّيه وخصومه في النقائض ، لأنه سرعان ما يصلى منه ناراً ذات لهب ، ومن ذلك ما أصاب أحد الشعراء السود من الموالي (ويُدعى : **الْحَيْقُطَان**) حين قال :

يا صاحِبيَّ دَنا الرَّوَاحُ فسِيْرا غَلَبَ الفرزدقُ في الهجاء جريرا

فما كان من جرير إلا أن رماه ببيت في غاية الفحش يصوِّره تصويراً هزلياً (كاريكاتورياً) فأثار ضحك الناس عليه حتى صار يتوارى عن الناس خوفاً من أن يُعَيَّر به .

وتعرَّف جرير في مجلس (**بشر بن مروان**) بالكوفة على (**الأخطل التغلبي = غِياث بن غَوْث**) (م٩٣هـ) الذي كان يدين بالنصرانية ، وكان مقرباً من عبد الملك لما يمدحه به من روائع المدح ، وقد نصر الأخطلُ الفرزدقَ في هجائه لجرير ، فكان من أبرز الشعراء الذين ناقضهم جرير عشرين سنة إلى أن مات ، وكان يهجوه بمعانٍ يكرِّرها دائماً أبرزها :

١) أنه بقي على النصرانية مع أن شطراً من قومه تغلب ببلاد الشام قد دخلوا في الإسلام ، ومنهم (**كعب بن جُعَيْل التغلبي**) شاعر معاوية وأهل الشام الذي كان يناقض – خلال الفتنة الكبرى – الشاعر (**النجاشي الحارثي**) شاعر علي وأهل العراق .

٢) أنه يفخر بنُزول رسالة السماء على فرع مضر من العرب (**وعنده تلتقي قريش وتميم**) ، ولم تنْزل على ربيعة (**وتغلب منها**) .

٣) أن النبي (ص) مضري .

٤) أن خلفاء النبي (ص) كانوا من مضر أيضاً ، ولذلك قال فيه وفي قومه :

هذا ابنُ عَمِّيْ في دِمَشْقَ لَوْ شِئْتُ ساقَكُمُ إليَّ قَطِيْنا

خليفةً

٥) أنه يشرب الخمر ويأكل لحم الخنْزير ..

تصدَّى لهجاء جرير في حياته أكثرُ من ثمانين شاعراً ، فأخملهم جميعاً فيما عدا اثنين هما الفرزدق والأخطل ، وكان الأخطل يقول في جرير : (**كان بلاءً على من صُبَّ عليه**) ، لبراعته في اختراع المعاني وتوليد الصور . وكان النقّاد القدماء يقولون في استجابة طبع كل من جرير والفرزدق للشعر : (**جريرٌ يَغْرِفُ من بحر ، والفرزدقُ يَنْحِتُ في صخر**) ، لأن طبع جرير كان أكثر مواتاةً للشعر وإسماحاً به ، وكان الفرزدق كَزَّ القريحة ، وهو يعترف بذلك قائلاً : (**ربَّمَا مرَّتْ عليَّ ساعةٌ ، وقَلْعُ ضِرْسٍ من أضراسي أهوَنُ عندي من قولِ بيتٍ واحدٍ من الشعرِ**) . ويروى أن الشاعر الأموي (**عَدِيَّ بن الرَّقّاع العامِلِيّ**) تحرَّش بجرير مرة ، وهو في مجلس الخليفة (**الوليد بن عبد الملك**) ، ثم خاف منه وندم حين رمقه جرير بنظرة غضب ، فوثب على رجل الوليد فقبَّلها وقال : (**أَجِرْني منه يا أمير المؤمنين !**) ، فأجاره ، فأنقذه من معرَّة لسانه ، لأن جريراً لم يكن يتورَّع عن استعمال أي معنى في هجاء خصومه ، وكان يُفْحِش في القول وذكر الأعراض .

ويُرْوَى ، في المقابل ، أن الفرزدق لَمّا همَّ ذات مرّة بأن يهجو قبيلة (**عبد القيس**) ، أرسل إليه شاعرها (**زيادٌ الأعجم**) مولاهم ، يستمهله حتَّى تصلِ إليه هديتُه ، فظنّ أنه يصانعه لئلا يهجو مواليه ، وإذا بها رقعةٌ كُتِب عليها قول زياد :

وما ترَكَ الهاجون لِيْ إنْ هَجَوْتُه ... مَصَحّاً أراهُ في أَدِيْمِ الفرزدَقِ

ولا تركُوا لَحْماً يُرَى فَوْقَ عَظْمِهِ ... لآكِلِهِ أبقَوْهُ للمتَعَرِّقِ

سأَكْسِرُ ما أبْقَوْا له من عِظامِهِ ... وأنْكُتُ مُخَّ الساقِ منهُ وأَنْتَقِي

وإنّا وما تُهْدِيْ لنا إنْ هَجَوْتَنا ... لكَالبَحْرِ مهما يُلْقَ في البَحْرِ يَغْرَقِ

فلما قرأ الفرزدق الأبيات كفَّ عن هجائهم ، وقال : (**لا سبيل إلى هجاء هؤلاء ما عاشَ هذا العَبْدُ فيهم**) . وإن دلّ هذا القولُ على شيء ، فإنما يدلّ على عجز الفرزدق أمام زيادٍ هذا ، لأنه كان سليط اللسان ، وما كان هذا ليحدث مع جرير ، الذي كان يَعِفّ أحياناً عن هجاء بعض من يهجونه من منطلق القوة أو الإشفاق عليهم أو الاحتقار لشأنهم ، لا من منطلق الضعف والعجز . ومن ذلك أن شاعراً يلقَّب (**البَرْدَخْت**) تعرَّض له بشيء من الهجاء ، فسأل عن معنى لقبه ، فقيل له : كلمة فارسية تعني (مَنْ لا عَمَل له) ، فقال : ندعه لبطالته ولا نشغله بأنفسنا !

وعلينا – مع ذلك – أن نفهم أن الخصومات في هذه النقائض كانت غير جادة ، بمعنى أنها كانت هزلية تتوخَّى الغلبة على الخصم وإضحاك الناس عليه ، من غير أن يُسَلّ فيها سيف أو تراق فيها دماء ، ولكن عار هذه النقائض كان يُرهب بعض الناس أو يُرهب أقوامهم ، مما يدعوهم إلى التنصل أو التبرؤ من شاعرهم أو التواري عن الأنظار أو إنكار نسبهم إن سئلوا عنه ، ولكن العلاقة بين الفرزدق وجرير ، وكلاهما تميمي ، كانت علاقة ود وصداقة ، وكان أحدهما إذا تعرَّض لسوء أو أذى سارع الآخر إلى مد يد العون له للتخفيف عنه .

١١– وفاة الفرزدق وجرير :

مات الفرزدق سنة ١١٤هـ ، ودُفِن في (**البصرة**) ، فلما سمع جرير بذلك ، وهو في (اليمامة) ، قال شامتاً به :

مَاتَ الفَرَزْدَقُ بَعْدَمَا جَدَّعْتُهُ لَيْتَ الفَرَزْدَقَ كَانَ عَاشَ قَلِيْلا

فلما عوتب في ذلك ، بكى وقال يرثيه :

فَلاَ حَمَلَتْ بَعْدَ الفَرَزْدَقِ حُرَّةٌ وَلاَ ذَاتُ حَمْلٍ مِنْ نِفَاسٍ تَعَلَّتِ

هُوَ الْوَافِدُ الْمَحْبُوُّ وَالرَّاتِقُ الثَّأَى إِذَا النَّعْلُ يَوْمَاً بِالْعَشِيْرَةِ زَلَّتِ

[النفاس : حُمَّى الولادة . تعلَّت : تعافت . الراتق : الذي يخيط الشَّق . الثأى : الجراح . زلَّت : زلقت]

ثم لحق به جرير في السنة نفسها بعد أقل من ستة أشهر ، ودفن في موطنه ببادية (**اليمامة**) ، فانطوى بذلك علمان كبيران من أعلام شعرنا العربي في العصر الأموي ، بعد أن ملآ العصر دوياً وضجيجاً وخلَّدا اسميهما في سجل الأدب العربي الخالد .

تيار شعر الزهد في العصر الأموي

سابق بن عبد الله البربري الرَّقِّيّ

(مولى بني أمية)

(م بعد سنة ١٠١هـ)

١- نبذة عن حياته :

يكنى شاعرنا (سابق بن عبد الله بن أمية) تارة (أبا أمية) وتارة أخرى (أبا الْمُهَاجِر) .. وهو ينتمي إلى العجم الذين دخلوا في المجتمع العربي الإسلامي ، فأسلموا واستعربوا بالتدريج ، وعرفوا من ثَمَّ باسم (الموالي) ، حتى كان جيل الأحفاد - أي الجيل الثالث منهم - ذوي نشأة عربية خالصة ، يتقنون العربية إتقان أهلها لها ، ولذا نجدهم يتلقون الثقافة الأدبية وعلوم اللغة المعروفة في أزمانهم ويتفقهون في الدين على خير وجه ، ويكثُر بين الموالي - في العصر الأموي - العلماءُ والفقهاء والكُتَّاب الناثرون والشعراء ..

ويعود سابق ، في أصوله العرقية ، إلى البربر في بلدان المغرب ، وكان جدُّه (أمية) - فيما يبدو - وكان من نصيب بعض بني أمية ، ضمن أوائل السبي الذي وقع في يد طلائع الفتح الإسلامي الذي وصل إلى غربي ليبيا (في أواخر خلافة عمر بن الخطاب) أو شرقي تونس (في أوائل خلافة معاوية بن أبي سفيان) ، حيث يبدأ ظهور البربر ، ولذلك قيل له (البربري) ، نسبة إلى قومه هؤلاء ، وذهب بعض الباحثين إلى أن (البربري) مجرَّد لقبٍ لُقِّب به ، ولا دليلَ عندنا يؤيِّد ذلك . وقد نشأ الجدُّ بين مواليه بني أمية نشأة طيِّبة لأنهم كانوا أهل الخلافة والسلطان ، وتزوَّج ، فأنجب ابنه (عبد الله) ، الذي تزوج بدوره ، فأنجب (سابقاً) الذي يمثِّل الجيل الثالث من الموالي ، وقد نبغ في ميدان الفقه والعلم والنثر الأدبي والشعر ..

ويبدو لنا أن (سابقاً) وُلِد في دمشق ، قاعدة الخلافة الأموية ، ولكننا لا نستطيع تحديد تاريخ مولده ، ونتوقع أن يكون في زمن معاوية (٤١هـ-٦٠هـ) .. وقد نشأ وعاش فيها مدَّة من حياته وتلقَّى خلالها علومه ومعارفه اللغوية والأدبية والدينية والتاريخية .. وقد مال - بعد أن تشبَّع بعلوم الدين والفقه ونبغ فيها - إلى العمل في ميدان القضاء والخطابة الوعظية والدعوة والزهد ، وتفتَّحتْ موهبته الشعرية ، في هذا الأوان ، على هذا اللون من ألوان الشعر العربي (الوعظ والزهد) الذي كان تعبيراً عن العقيدة الإسلامية من حيث الجوهر في فلسفة الحياة التي ينبغي للمؤمن أن يسلكها عموماً .. وقد أُرْسِل إلى مدينة (الرَّقَّة) ، الواقعة على نهر الفرات في شمال سورية اليوم ، ليكون قاضي أهلها وإماماً للمسجد الجامع فيها ، وبقي في عمله هذا طيلة حياته ، ومن هنا جاءته نسبة (الرَّقِّيّ) ، وكانت له مجالس وعظ وعلم في ذلك المسجد ، وكان يبثّ أشعاره الوعظية الزهدية بين الناس ، حتى رُوِي عنه أنه كان يلقي خطبة صلاة الجمعة كلها شعراً زهدياً وعظياً في بعض الأحيان ..

وكان سابق يروي الحديث عن بعض علماء طبقة التابعين من علماء الشام (من مثل : مكحول وغيره) ، ولذا كان معدوداً في طبقة تابعي التابعين ، وقد روى عنه الحديثَ علماءُ أجلاءُ (من مثل : الأوزاعي وغيره) ، وكان يتتبَّع الصِّلات بين علماء العصر حتى إنه قال : (كتب مكحول إلى الحسن [البصري] ، ونحن بدابق [في نواحي حلب] يسألُه عن الطالب والمطلوب ، فجاءه الكتاب : إنْ كنتَ طالباً فصلِّ بالأرض ، وإن كنتَ مطلوباً فصلِّ على الدابَّة) .. ويُرْوَى عن سابق ، في مجاميع الحديث النبوي الشريف ، نحوُ ثلاثين حديثاً منها ما يرويه عن أبي خلَفٍ عن أنسٍ أن رسول الله (ص) قال : (إذا مُدِحَ الفاسِقُ غَضِب اللهُ عَزّ وجَلّ) .

تسكتُ المصادر عن ذكر أخبار سابق بعد سنة ١٠١هـ ، أي بعد وفاة الخليفة الزاهد (عمر بن عبد العزيز) ، وذلك لأن خليفته (يزيد بن عبد الملك) عاد إلى حياة اللهو والإقبال على الدنيا وملذاتها ، ناسفاً بذلك عهد عمر كله .. وهذا ما جعل

الاهتمام يقلّ بشاعرنا سابق وبشعره الوعظي الزهدي النقيض الطبيعي لمثل تلك الحياة .. أي أن سنة ١٠١هـ لا تعني تاريخ وفاة شاعرنا .. ونظن أنه عُمِّر بعد ذلك سنين كثيرة ..

٢- منْزِلته بين معاصريه :

وكانت له منْزِلة عظيمة وشهرة بين الناس في زمانه ، حتَّى إن الخليفة (عمر ابن عبد العزيز) (الذي حكم ثلاث سنين من سنة ٩٩هـ إلى سنة ١٠١هـ) كان يستزيره فيلبي دعوته ، ويسأله عن أشعار الوعظ والزهد التي قالها ، وكان سابق يبادر الخليفة أحياناً بالزيارة من غير دعوة ، فيدخل عليه ويحضر مجلسه ، ليؤدِّي ما عليه من نصيحة لأئمة المسلمين ، وقد دخل عليه مرة بعد توليه الخلافة ، فقال له عمر : (أنشدني ، يا سابق شيئاً من شعرك تُذَكِّرني به . فقال : أَوْ خَيراً من شعري ! قال : هاتِ) ، فأنشده قطعة من شعر أعشى همدان (م٨٣هـ) في الوعظ والزهد ، يقول فيها :

١ وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ أَمْسَى نَاعِمَاً جَذِلاً فِيْ أَهْلِهِ مُعْجَباً بِالْعَيْشِ ذَا أَنَقِ

٢ غِرَّاً .. أُتِيْحَ لَهُ مِنْ حَيْنِهِ عَرَضٌ فَمَا تَلَبَّثَ حَتَّى مَاتَ كَالصَّعِقِ

٣ ثُمَّتَ أَضْحَى ضُحَىً مِنْ غِبِّ ثَالِثَةٍ مُقَنَّعَاً غَيْرَ ذِيْ رُوْحٍ وَلاَ رَمَقِ

٤ يُبْكَى عَلَيْهِ وَأَدْنَوْهُ لِمُظْلِمَةٍ تُعْلَى جَوَانِبُهَا بِالتُّرْبِ وَالْفِلَقِ

٥ فَمَا تَزَوَّدَ مِمَّا كَانَ يَجْمَعُهُ إِلاَّ حَنُوْطَاً وَمَا وَارَاهُ مِنْ خِرَقِ

٦ وَغَيْرَ نَفْحَةِ أَعْوَادٍ تُشَبُّ لَهُ وَقَلَّ ذَلِكَ مِنْ زَادٍ لِمُنْطَلِقِ

[١- جذلاً : فرحاً . أَنَق : سرور ٢- غراً : غافلاً . حينه : هلاكه . عَرَض : ما يعرِض للإنسان من مرض أو مصيبة أو حادث . تلبَّث : بقي . الصعق : المصعوق الذي تصيبه صاعقة ٣- من غِبّ ثالثة : من بعد ثالث ليلة . مقنَّعاً : مستوراً بكفنه . الرمق : بقية الروح أو النَّفَس ٤- المظلمة : صفة لمحذوف تقديره (حفرة مظلمة) ، وهي القبر . الفِلَق : جمع فلقة ، وهي القطعة من الصخر ٥- الحنوط : الطِّيْب

الذي يوضع على جسد الميِّت بعد غسله ٦- النفحة : الهبَّة من رائحة الطِّيْب . الأعواد : يقصد أعواد البخور والطيب . تُشَب له : تحرق] .

فلما سمعها عمر بكى حتَّى اخضلَّت لحيته . كما كان هذا الخليفة يراسل سابقاً ، وكان سابق يرسل إليه الرسائل الشعرية في الموضوع نفسه ..

٣- دور سابق في تطوير شعر الزهد :

كان لسابق دور مهم جداً في شعر (الزهد) ، من خلال تطويره الواقع الذي كان عليه بأربعة أشكال :

١) فقد جعله نوعاً شعرياً مستقلاً بين الأنواع الشعرية العربية المعروفة ، وجعل له شخصيته الخاصة به في المواضيع والدوافع والخواص الأسلوبية العامة التي تضبطه وتتحكم به والمعجم اللغوي الذي يستمد منه (ومصدره القرآن والحديث النبوي) .. فقد كان موضوع الزهد يَرِد - منذ انتصار الدعوة الإسلامية في جزيرة العرب - في البيت والبيتين المستقلين أو الواردين في أثناء أبيات القصيدة في موضوع من المواضيع الشعرية المختلفة ، وكان يَرِد في أشعار بعض الشعراء ، في العصر الأموي ، في قطعة من عشرة أبيات وأقل .. أي أن سابقاً خلَّص موضوع (الزهد) من الامتزاج بغيره من المواضيع والأنواع أو من التبعية لها ..

٢) أنه تخصَّص بهذا اللون من الشعر وحده ووقف عليه كل شعره ، ولم يشغل نفسه بأي نوع شعري آخر .. فكان صنيعه هذا شبيهاً بتخصُّص الشاعرة المخضرمة (الخنساء السُّلَمية) بشعر (الرثاء) دون غيره من الأنواع الأخرى ، وشبيهاً أيضاً بتخصُّص (عمر بن أبي ربيعة المخزومي ، ومجنون ليلى العامري ، وقيس لبنى الكِناني ..) من الشعراء الأمويين بشعر (الغزل) وحده دون سائر الأنواع الأخرى في الشعر ..

٣) أنه أطال نَفَس الشكل الشعري السابق (أي : القطعة الشعرية) ، التي كانت سائدة قبله في صدر الإسلام والعصر الأموي ، لتصبح قصيدة في (الزهد) قد تطول وقد تقصر ..

٤) أنه أكثر من الإنتاج في شعر الزهد حتى أصبح غزيراً وفيراً ، ولم يكن ذلك لأحد من الشعراء قبله ، ولا شك في أن هذه الغزارة قد لفتت الأنظار إلى هذا النوع بقوَّة .

ولكن ما قام سابق به من خطوات تطويرية في ميدان هذا النوع لم يعجب بعض النقاد القدماء ، فقد نقل (الجاحظ) (م٢٥٥هـ) عن بعضهم قوله : (لو أن شعر سابق البربري ، وصالح بن عبد القدوس [وهو من شعراء العصر العباسي الأول ويسير على طريقة سابق في شعره] كان مفرَّقاً في أشعار كثيرة لصارت تلك الأشعار أرفعَ مما هي عليه بطبقات ، ولصار شعرهما نوادر سائرة في الآفاق ، ولكن القصيدة إذا كانت كلُّها أمثالاً [ويريد بالأمثال الوعظ والتذكير والزهد والحكمة] لم تَسِرْ ، ومتى لم يخرُج السامعُ من شيء إلى شيء ، لم يكن لذلك عنده موقعٌ) ، ويبدو لي أن الجاحظ هو صاحب هذا الرأي الناقد لشعر سابق ، لأنه يتوافق مع منهجه في تأليف جميع كتبه المشهورة (كالبيان والتبيين ، ..) ، وهو المنهج الذي صوره في مقدمة الكتاب المذكور ، ويقوم على التنويع والاستطراد والانتقال من فكرة إلى فكرة ومن موضوع إلى آخر في الحيِّز نفسه ، وكأنه يرى أن القصيدة التقليدية متعددة الأنواع والمضامين أقرب إلى النفس من القصيدة المتخصصة بنوع واحد ، لأنها تمثِّل لوناً واحداً يبعث على الملَل أو الضجر أحياناً .. وهذا الرأي يَنْسِف – كما نرى – إنجازات سابق من أساسها ، ويعيدنا إلى ما كان عليه شعر الزهد قبله ..

٤– تأثُّر سابق بشعر الزهد قبله :

لا شك في أن سابقاً قد تأثَّر بمثل هذه الأشعار التي كانت متفرِّقة قبله في أشعار الشعراء ، ولا شك أيضاً في أنه أفاد منها ، وقلَّدها ، وأضاف إليها ، بل إنه كان يُجِلّ

أصحابها ويقدرهم حقَّ قدرهم ، ويقر لهم بالفضل عليه والسبق له .. وهذا ما أشرنا إليه وفهمناه من خبره الذي رأيناه آنفاً في مجلس الخليفة عمر بن عبد العزيز ، حين استنشده شيئاً من شعره ليذكِّره به ، فقال له : (.. أَوْ خَيْراً من شعري !) ، وهذا قمة التواضع الذي قلما نجده عند شاعر من الشعراء ، وقد أنشده – كما مر بنا آنفاً – مما يحفظ من شعر أعشى هَمْدَان (والمعروف عن أعشى همدان هذا أنه كان يتردَّد في أول حياته على مجالس الفقهاء وتعلم القرآن وتفسيره وحفظه ، وبدأ حياته الشعرية بهذا النوع ، ثم تحوَّل إلى الأنواع الدنيوية المألوفة ، وشارك في ثورة ابن الأشعث على الحجاج الثقفي والأمويين ، ووقع أسيراً في يديه ، فأمر بقتله سنة ٨٣هـ) .

٥– مصادر شعر الزهد عند سابق :

يذهب بعض الباحثين إلى أن مصدر نزعة الزهد عموماً – عند شعراء الزهد – لم يكن إسلامياً ، وإنما دخل إلى المجتمع الإسلامي من جهة الديانات الوضعية في حضارات الشرق القديم : كالديانة المجوسية ، والديانة الهندوسية ، والديانة البوذية وغيرها .. وهذا الرأي غير صحيح ، وذلك لأن الدعوة إلى الزهد معروفة مشتركة بين كل الديانات الوضعية والأديان السماوية المنَزَّلة ، فلا يجوز أن يزعم أحدٌ أن إحدى هذه الديانات أو أحد تلك الأديان قد أخذ هذه النَّزْعة عن الآخر .. كما أن التوجُّه الصوفي أو التصوفي كان تطوراً طبيعياً وامتداداً لنُزُوع أهل التقى والورع إلى التسامي فوق الواقع والبحث عن الحكمة والمطلق والكمال ، وليس غريباً أن تولد هذه النَّزْعة في أحضان الدين الإسلامي في بعض فترات الخطر الخارجي المحيط بالمسلمين (وخاصة حين تعرضوا لأخطار الفرنجة من الغرب والمغول من الشرق) خلال القرون ١١و١٢و١٣ للميلاد ، ليكون في كل ذلك سياجٌ يحصِّن قلوب المؤمنين من الفتن والتغيُّر .. وإذا نظرنا في أمر الزهد فإننا نجده أصيلاً في الإسلام في كل آية كريمة وفي كل حديث شريف ، كما أنه نزعة مشتركة في كل الديانات والأديان ، فلا يكون

لبعضها على بعض فضلٌ في ذلك ولا سَبْقٌ ولا تأثُّر ولا تأثير .. وإذا نظرنا في قوله تعالى : ﴿وابتَغِ فيما آتاك اللهُ الدارَ الآخِرَةَ ولا تَنْسَ نصيبَك من الدنيا﴾ ، وفي قول علي (ر) : (اعمَلْ لدنياك كأنك تعيشُ أبداً ، واعمل لآخرتِك كأنَّك تموتُ غداً) ، فسوف نجد منطلقين أساسيين من منطلقات الدعوة إلى الزهد في الإسلام .

وهكذا يتبين لنا من كل ما تقدَّم أن مصادر الزهد عند سابق لا تعدو أن تكون إسلامية محضة ، أي أنه تأثر فيما نظم من أشعار : بآيات القرآن الكريم ، وأحاديث النبي (ص) ، وكلام الصحابة والتابعين والصالحين والأتقياء من المسلمين في أقوالهم المأثورة .. كما كان متأثراً بأشعار الزهد المتفرقة عند من تقدَّمه من الشعراء .. ولم يكن شعره بعيداً عن كلام (الحسن البصري) (م١١٠هـ) المعاصر له في مختلف الأنواع التي رأيناها من قبل ، بل إننا لنكاد نجد شعر سابق ترجمة لنثر الحسن البصري .. ، فإن لم يكن أخذ منه ، فتفسير هذا التقارب في المعاني والمواضيع والأساليب هو أنهما أخذا من مشرَبٍ واحدٍ هو (القرآن والحديث ..) : وكانت معاني سابق في أشعاره – في الأغلب الأعم – حلاً لمعاني هذا المشرب (أي إعادة تشكيل هذه المعاني وصياغتها بألفاظه وتعابيره الخاصة) أو نظماً لها (أي نقلاً من لغة النثر إلى لغة الشعر) .. على شاكلة قوله مثلاً :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَل بِزَادٍ مِنَ التُّقَى وَوَافَيْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لاَ تَكُوْنَ شَرِكْتَهُ وَأَرْصَدْتَ قَبْلَ الْمَوْتِ مَا كَانَ أَرْصَدَا

وهذا المعنى حلٌّ ونظم لبعض الآيات الكريمة ومنها قوله تعالى : ﴿وتَزوَّدُوا فإن خيرَ الزادِ التقوى﴾ ، ونجد فيها صدى لقوله تعالى في بيان ما كان ينفع في الدنيا : ﴿المالُ والبنونَ زينة الحياة الدنيا﴾ ، ولم يعد ينفع شيئاً في الآخرة : ﴿يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ﴾ . ونجد صدى قوله تعالى : ﴿وتَعَاوَنوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا علَى الإِثْمِ والعُدْوان﴾ في قول سابق :

تَعَاوَنْ علَى الْخَيْرَاتِ تَظْفَرْ ولا تَكُنْ علَى الإِثْمِ والعُدْوَانِ مِمَّنْ يُعَاوِنُ

ومواضيع شعر سابق الزهدي كانت جميعاً مما نجده من مواضيع قرآنية وحديثية : كمعالجة قضية الوعظ والزهد والتذكير ، والتقوى ، والموت ، والعمل للآخرة ، ويوم القيامة ومافيه من حساب يليه عقاب أو ثواب ، وقضية المال ، والعلم ، والبر والخير ، والهداية ، والقناعة ، وترك الملذات والابتعاد عن المعاصي ، وطاعة الله ، والتربية ، والقبر ، والاعتبار بكل ما يرى الإنسان في ماضي البشر وحاضرهم ..

٦- فلسفة سابق في شعره الزهدي :

كان سابق يتبع في شعره الزهدي المذهب الأخلاقي الخالص ، لأنه ملتزم بالعقيدة الإسلامية التزاماً تاماً ، فهو قاضٍ ، وخطيبٌ ، وداعيةٌ ، ومعلِّمٌ ، وهادٍ .. ، وهو من الذين يذكرون الله كثيراً في كلامهم .. وهذا كله أدى به إلى أن يسير في شعره على المبدأ القائل بـ (تحسين الحسَن ليزداد حُسْناً ويُقْبِل عليه الناس ويغريهم باتباعه ، وتقبيح القبيح ليزداد قبحاً وينفُر منه الناس ويتجنَّبُوه) .. كقوله مثلاً :

وَتَجَنَّبِ الشَّهَوَاتِ وَاحْ ذَرْ أَنْ تَكُوْنَ لَهَا قَتِيْلاَ

فَلَرُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ قَدْ أَوْرَثَتْ حُزْنَاً طَوِيْلاَ

٧- تأثير سابق في أبي العتاهية في العصر العباسي الأول :

يذهب أغلب الباحثين إلى أن (أبا العَتَاهِيَة : إسماعيل بن القاسم) (١٣٠هـ-٢١١هـ) هو مؤسِّس شعر الزهد في أدبنا العربي ، ولكننا ننفي ذلك لجملة أسباب قوية جداً ، لنصل إلى القول إن أبا العتاهية هذا كان تلميذاً نجيباً في مدرسة سابق الشعرية الزهدية ، لأنه تأثَّر بشعره تأثُّراً مباشراً ، وسار على مذهبه في المواضيع والمعاني والأساليب ، حتَّى إن المرء يلمس بين شعر سابق وشعر أبي العتاهية صلة قوية تكاد تظهر في كل بيت ، كما أن الروح الناظمة لهما تكاد تكون واحدة .. وذلك لأن سابقاً كان المتقدِّم من الناحية الزمنية .. والفضل يكون دائماً للمتقدِّم .. وكان شعر

سابق الذي أنتجه في حياته وفيراً غزيراً ، كما كان شعر تلميذه أبي العتاهية وفيراً غزيراً ، غير أن الفارق الأول بينهما أن ما وصل إلينا من شعر الأستاذ كان قليلاً قياساً على ما وصل إلينا من شعر التلميذ .. وأما الفارق الثاني فهو أن الأستاذ لم تتح له فُرَص الشهرة التي أتيحت لتلميذه ، فذاع صيتُ التلميذ وطبَّق الآفاق ، وأُهْمِل ذِكْرُ الأستاذ حتى بات من المغمورين غير المعروفين ، حتى جلونا عنه – في هذا العصر ومن خلال البحوث الحديثة المنصفة – الظلمَ الذي حاق به عفواً أو عمداً .. ولعلَّ أهم دليلٍ مهمٍّ لا يُدْفَع في هذا المجال أن أبا العتاهية صرف أكثر من نصف عمره في نظم شعر الغزل واللهو والمجون ، وكان ممن يمدحون الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠هـ-١٩٣هـ) وينادمونه في مجلسه ، وكان من عادة الرشيد أن يقضي الصيف في قصر له في منتجع (الرُّصَافة) ، الذي يقع على ضفاف نهر الفرات قرب مدينة (الرَّقَّة) بالشام ، وقد اصطحب الرشيد معه أبا العتاهية ، في إحدى السنين إلى ذلك المنتجع الصيفي ، وكانت أشعار سابق – فيما نقطع به – قد استوطنت (الرقة) ، وشاعت بين الناس فيها ، وحفظوها ، وردَّدوها فيما بينهم ، وكانت هذه المدينة معزولة ، ولم تكن كبغداد التي يقصدها العلماء والأدباء والشعراء من كل صوب ، ويشتهر فيها كل مبدع بسهولة ويسر .. ويبدو أن أبا العتاهية قد سمع تلك الأشعار من أفواه الناس ، أو قرأها مكتوبة ، فلفتت انتباهه وأثرت في تفكيره ونقلته من الغفلة التي كان سادِراً فيها إلى الصحوة على ما ينتظره عند ربه يوم القيامة من عذاب أو ثواب .. ، فلما عاد إلى بغداد إذا به يهجر شعر الغزل وحياة اللهو والمجون إلى حياة قويمة راح يعبِّر عنها بأشعار زهدية واضحة التأثُّر بشعر سابق ، بل إنه أتلف أو أهمل – نتيجة هذا التحوُّل الكبير في حياته وفكره – كل شعر قبله في الغزل واللهو والمجون والمديح والهجاء وغيره حتَّى اختفى ولم يصل إلينا منه إلا نَزْرٌ يسير جداً .. ، ولذلك نجد الغالب المسيطر على ديوانه الضخم الذي وصل إلينا (وحقَّقه أستاذي المرحوم د. شكري فيصل) إنما هو شعر الوعظ والزهد .. وهذا يعني أن أبا العتاهية واصل

رسالة أستاذه سابق بمثل هذا التحوُّل الكبير الذي شهدته حياته . ونذهب أيضاً إلى أن أبا العتاهية لم يكن هو الذي سار بهذا النوع الشعري (الزهد) نحو النضج ، لأن سابقاً هو الذي أنضجه من قبل ، ولم يكن من فضل لأبي العتاهية ، في ميدانه ، سوى أنه أكثر من الإنتاج فيه – كما يبدو لنا في الظاهر – وأنه أذاعه بين الناس في الآفاق وشَهَره بوصفه نوعاً شعرياً مستقلاً ، بفضل الظروف التي توافرت له في مدينةٍ كانت عاصمة الدنيا والثقافة والسياسة آنذاك هي مدينة الرشيد (بغداد) ..

٨- تفسير قلَّة ما وصل إلينا من أشعار سابق :

قلنا آنفاً إن أشعار سابق الزهدية كانت وفيرة غزيرة ، لأنه صرف حياته كلها في نظمها ، حتى أصبحت عادة عنده .. ولكن ما وصل إلينا من هذه الأشعار يكاد يصل إلى (٢٢٠ بيتاً) تقريباً نشرها (د. بدر أحمد ضيف) ، سنة ١٩٨٧ ، في ديوان صغير ، وهذا العدد الباقي من أبيات شعره يقارب ما يقوله شاعر محترف على سبيل المثال في أربع قصائد أو خمس تستغرق منه شهراً واحداً فقط أو لنقل : سنة واحدة .. فأين ما أنتجه سابق في سائر سني عمره الطويل ؟ علماً أن تلميذه أبا العتاهية وصل إلينا ديوان ضخم له في الزهد ، ولا يقل مجموعه عن ثلاثة آلاف بيت .. ولا شك في أن هذه المسألة تحتاج إلى شيء من التفسير أو التوضيح ، ونحن نرى لذلك التفسيرين التاليين :

أولاً- لم تتح لسابق فرص تدوين كل أشعاره التي قالها في حيِّز واحد في دَفَّتي ديوان ، بل ظل شعره منتشراً شفوياً ومشتتاً بين الناس ، وكانت بيئته بعيدة عن الحركة العلمية والأدبية في المجتمع .. ولكن زمن أبي العتاهية شهد جمع دواوين الشعر العربي القديم والمعاصر ، وكان للشاعر أكثر من راوية يتتبَّع ما ينتج ويدونه ويجمعه بين دَفَّتي ديوان .. وكان أبو العتاهية وإنتاجه في قلب الحركة العلمية والأدبية المحتدمة في بغداد ..

ثانياً – أن كثيراً من أشعار سابق ، المتداولة شفهياً بين الناس ، قد دخلت في أغلب الظنّ ، في ديوان أبي العتاهية ، على أيدي الرواة أو الناسخين بعد وفاة أبي العتاهية ، وعن حسن نيةٍ أوجهلٍ منهم ، نظراً للتشابه الموضوعي والفني والأسلوبي عموماً بين أشعار الأستاذ والتلميذ ، ولغلبة شهرة الأخير على الأول .. وقد صرَّح بعض النقاد بوقوع مثل هذا لأشعار شعراء المذهب الشعري الواحد ، أو أتباع المدرسة الشعرية الواحدة : فقد كان الرواة ونساخ الشعر يضيفون أشعار المغمور إلى ديوان المشهور ، ظناً منهم بأنها أشعار ضالة مما قاله .. ومن ذلك أن كل شعر فيه ذكرٌ لاسم (ليلى) ، في العصر الأموي ، أضيف إلى (مجنون ليلى : قيس بن الملوَّح العامري) ، وأدخِل في ديوانه .. وعُدَّ من شعره .. ومثل ذلك أن كل شعر فيه ذكر لـ (الخمر) حُمِل على (أبي نواس : الحسن بن هانئ) ، في العصر العباسي الأول ، وأدخل في ديوانه .. كما أن كثيراً من شعر الغزل العذري كان يختلط بعضه ببعض ، ومثل ذلك شعر الغزل العمري ، فكان شعر المغمور يُدْخَل في ديوان المشهور .. وهكذا استقطب ديوان (عمر بن أبي ربيعة) مثلاً كثيراً من أشعار معاصريه المغمورين في الغزل ، أو أشعار أتباع مدرسته ، نظراً لتوافق العامل الفني بين هذه الأشعار عموماً .. ولعلَّ الذي أوقع الرواة والنساخ في هذا الأمر أن أكثر الأشعار التي كانوا يجدونها عند الناس لم تكن منسوبة أو معروفة القائل ، فذهب ظنهم إلى أنها لهذا الذي اشتهر بهذا اللون أو ذاك ..

٩– نماذج من أشعار سابق :

١) قال في رسالة شعرية بعث بها إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز :

١ بِاسْمِ الَّذِيْ أُنْزِلَتْ مِنْ عِنْدِهِ السُّوَرُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .. أَمَّا بَعْدُ يَا عُمَرُ

٢ إِنْ كُنتَ تَعْلَمُ مَا تَأْتِيْ وَمَا تَذَرُ فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ .. قَدْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ

٣ وَاصْبِرْ عَلَى الْقَدَرِ الْمَحْتُوْمِ وَارْضَ بِهِ وَإِنْ أَتَاكَ بِمَا لاَ تَشْتَهِي الْقَدَرُ

٤ فَمَا صَفَا لامْرِئ عَيْشٌ يُسَرُّ بِهِ إِلاَّ سَيَتْبَعُ يَوْماً صَفْوَهُ الْكَدَرُ

٥ أَصْبَحْتُمُ جَزَراً لِلْمَوْتِ يَأْخُذُكُمْ كَمَا الْبَهَائِمُ فِي الدُّنْيَا لَكُمْ جَزَرُ

٦ وَلَيْسَ يَزْجُرُكُمْ مَا تُوْعَظُوْنَ بِهِ وَالْبَهْمُ يَزْجُرُهَا الرَّاعِيْ فَتَنْزَجِرُ

٧ مَا يَشْعُرُوْنَ بِمَا فِيْ دِيْنِهِمْ نُقِصُوْا جَهْلاً .. وَإِنْ نُقِصُوْا دُنْيَاهُمُ شَعَرُوْا

٨ أَبَعْدَ آدَمَ تَرْجُوْنَ الْخُلُوْدَ وَهَلْ تَبْقَى فُرُوْعٌ لأَصْلٍ حِيْنَ يَنْعَقِرُ

٩ لاَ يَنْفَعُ الذِّكْرُ قَلْباً قَاسِياً أَبَدَاً وَالْحَبْلُ فِي الْحَجَرِ الْقَاسِيْ لَهُ أَثَرُ

١٠ وَالْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ كَمَا يُجَلِّيْ سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ

١١ وَالْعِلْمُ فِيْهِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوْبِ كَمَا تَحْيَا الْبِلاَدُ إِذَا مَا مَسَّهَا الْمَطَرُ

١٢ فَاسْتَخْبِرِ النَّاسَ عَمَّا أَنْتَ جَاهِلُهُ إِذَا عَمِيْتَ فَقَدْ يَجْلُو الْعَمَى الْخَبَرُ

[١- السور : سور القرآن ٢- تَذَر : تدَع ٣- المحتوم : الواقع لزوماً ٤- الكَدَر : التعكير ٥- جَزَر : جمع (جَزَرَةٍ) ، وهي كلُّ ما هو مباح للذبح وحلال أكله ، وإذا قُرِئت الكلمة (جُزُر) فهي جمع (جَزُوْر) ، ويعني المذبوح المقطَّع من الإبل . البهائم : جمع (بهيمة) ، وهي كل حيوان يمشي على أربع ٦- يزجركم : يردعكم . البَهْم : صغار الغنم والماعز ، وهي جمع (بَهْمَة) ١٠- يجلو : يكشف .] .

٢) وقال في القناعة والكسب والعُمران والموت :

١ النَّفْسُ تَكْلَفُ بالدُّنْيَا وقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلاَمَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيْهَا

٢ وَاللهِ مَا قَنِعَتْ نَفْسٌ بِمَا رُزِقَتْ مِنَ الْمَعِيْشَةِ إِلاَّ سَوْفَ يَكْفِيْهَا

٣ أَمْوَالُنَا لِذَوِي الْمِيْرَاثِ نَجْمَعُهَا وَدُوْرُنَا لِخَرَابِ الدَّهْرِ نَبْنِيْهَا

٤ أَيْنَ الْمُلُوْكُ الَّتِيْ عَنْ خَطْبِهَا غَفَلَتْ حَتَّى سَقَاهَا بِكَأْسِ الْمَوْتِ سَاقِيْهَا

٥ نَلْهُو ونأْمُلُ أَيَّامَاً تُعَدُّ لَنَا سَرِيْعَةَ الْمَرِّ تَطْوِيْنا ونَطْوِيْهَا

٦ كَمْ مِنْ عَزِيْزٍ سَيَلْقَى بَعْدَ عِزَّتِهِ ذُلاً وضاحِكَةٍ يَوْمَاً سَيُبْكِيْهَا

٣) وقال في تربية الأبناء وتعليمهم :

١ قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَبْنَاءَ فِيْ صِغَرٍ وَلَيْسَ يَنْفَعُهُمْ مِنْ بَعْدِهِ الأَدَبُ

٢ إِنَّ الْغُصُوْنَ إِذَا عَدَّلْتَهَا اعْتَدَلَتْ وَلاَ يَلِيْنُ إِذَا لَيَّنْتَهُ الْخَشَبُ

١٠- أبرز خواص شعر سابق الزهدي :

١) البساطة والوضوح في المعاني والمفردات .

٢) سلاسة الأسلوب .

٣) عَقْد معاني القرآن والحديث .

٤) استعمال الحِكَم .

٥) الإكثار من الصور الحسية المادية لتجسيد المعاني .

٦) استعمال المنطق الجدلي (بالانتقال من المقدمات إلى النتائج المرتبطة بها) .

٧) اتِّباع المذهب الأخلاقي في الشعر (تحسين الحسن وتقبيح القبيح) .

٨) استعمال جميع الأنواع البلاغية في خدمة معانيه (كالتشبيه ، والاستعارة ، والمجاز ، والكناية ، ورد العجز على الصدر ، والطباق ، والمقابلة ، ..) .

تيّار شعر الغزل في العصر الأموي

(مدرسة الغزل الحضَرِيّ)

تمهيد :

شهد العصر الأموي استمراراً لمدرسة الغزل التقليدي ، وهو عادة ذلك الغزل الذي كان الشعراء يفتتحون به قصائدهم في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي ، وخاصة في المدح والفخر والهجاء ، وهو غزل تابع لغيره من الأنواع الشعرية ، نظراً لأنه يقع في مطالع القصائد المركبة عند شعراء العرب عموماً ، ويكون – في الأغلب الأعم – غزلاً مصنوعاً متكلَّفاً لا يعبِّر عن عواطف حقيقية أو تجربة حب واقعية ، إلا ما كان يأتي على ألسنة شعراء الأعراب في الجاهلية (**كذكر مية عند النابغة ، وخولة عند طرفة ، وعبلة عن عنترة ، وأم أوفَى عند زهير** ..) ، وكان الشعراء يأتون به تحقيقاً لتقليد قديم في القصيدة هو ما ذكره (**ابن قتيبة**) (م٢٧٦هـ) – في مقدمة كتابه (**الشعر والشعراء**) – ويتمثَّل في شد الأسماع وإثارة الانتباه عند جمهور المستمعين ، لما في طبيعة الرجال من إلف النساء ومحبتهن . ومن هذا الغزل التقليدي في العصر الأموي غزل جرير والفرزدق وسائر شعراء التيار التقليدي في الشعر ، ومنه على سبيل المثال قول جرير :

وَلَوْ أَنها شَاءَتْ شَفَتْنِيْ بِهَيِّنٍ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْيَا الطَّبِيْبَ الْمُدَاوِيَا

فَإِنَّكِ إِنْ تُعْطِيْ قَلِيْلاً مَنَعْتِ وَحَلأْتِ الْقُلُوْبَ الصَّوَادِيَا فَطَالَمَا

فَيَا حَسَرَاتِ الْقَلْبِ فِيْ إِثْرِ مَنْ قَرِيْبَاً وَيُلْفَى خَيْرُهُ مِنْكَ نَائِيَا يُرَى

[حَلأْتِ القلوب الصوادي : منعتِ القلوب العِطَاش من الورود على الماء ، كما تمنع الإبل]

ولكن مدرستين غزليتين أخريين نشأتا في بيئة الحجاز في العصر الأموي ، نتيجة جملة شروط اجتماعية وظروف سياسية واقتصادية تضافرت معاً لتخلق الجو المناسب لازدهارهما ، من أهمها :

١– العزلة السياسية : كانت سياسة معاوية – بعد توليه الخلافة – قد قضت بأن يُلغى دور كبار الصحابة وأبنائهم من المهاجرين والأنصار في تولية الخلفاء بوصفهم (أهل الشورى) ، ولكن هذا الإلغاء لم يمسّ بمنْزِلتهم الرفيعة بين الناس ، ولم تمسّ ما كانوا ينالون من عطاء مجزٍ في زمن عمر وعثمان ، بل إنهم كانوا يُعْطَوْن مثلما كانوا يأخذون قديماً ، مع صلات وهدايا كثيرة كانت تُرسل إليهم بين الحين والحين حتى يضمن سكوتهم وهدوءهم ويكسب رضاهم وطاعتهم ، وقد ضمن معاوية بذلك عدم تدخلهم في شؤون الحكم والسياسة والإدارة ، غير أن الحسين ابن علي (ر) خرق هذه العزلة بخروجه على الأمويين بعد موت معاوية سنة ٦٠هـ ، في مطلع عهد ابنه يزيد بالخلافة ، فقُتِل في كربلاء على مشارف الكوفة . وكان ذلك على غير رغبة من أهل الحجاز ، غير أن طموح عبد الله بن الزبير دفعهم إلى خلع بيعة يزيد وإعلان العصيان على بني أمية لعلَّه يعيد قاعدة الخلافة إلى المدينة كما كانت من قبل ، وإن لم يكن إليها فإلى مكة التي اتخذها منذ سنة ٦٤هـ – إثر موت يزيد – قاعدة لخلافته إلى أن قُتِل فيها سنة ٧٣هـ على يد جيش عبد الملك ابن مروان بقيادة الحجاج الثقفي . لتعود الحجاز مرة أخرى إلى عزلتها السياسية حتى أواخر العصر الأموي حين استولى الخوارج عليها مدَّةً زمنَ آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد .

٢– وفرة الأموال : بدأت أموال الفتوح منذ مطلع زمن الخليفة عمر تنهال على بيت مال المسلمين في المدينة على شكل (**خمس الغنائم** ، **والفيء** ، **أي** : **الخراج** ، **والجزية** ، **وعشور التجارة**) ، وكانت هذه الأموال توزَّع بصورة عطاء (**أي راتب سنوي**) وَفْق نظام وضعه عمر وسار عليه عثمان ، فصَّلْناه في كتابنا (**الموالي ونظام الولاء من الجاهلية إلى أواخر العصر الأموي**) ، وخلاصته ترتيب الناس في ديوان العطاء حسب معيارين : الأول القرب في النسب من رسول الله (ص) ، والثاني السابقة في الإسلام . وعن طريق الغنائم التي يحصل عليها الأفراد المشاركون في وقائع تلك الفتوح ، وعن طريق التجارة ، وقد عانى الناس في فترة الفتنة

الكبرى من شح الأموال في الحجاز ، وخاصة المدينة : أولاً لنقل علي (ر) قاعدة الخلافة إلى الكوفة ، وثانياً لشح موارد بيت المال نتيجة الفوضى التي انتشرت في أرجاء الخلافة ، وثالثاً خروج بلاد الشام ومصر عن سيطرة علي وتوقف مواردهما الكبيرة ، ورابعاً عودة علي إلى سياسة أبي بكر (ر) في المساواة بين الناس في العطاء (بعد أن تعودت النفوس على نظام عمر المتدرِّج وفق المعيارين المذكورين) ، فكان كلما جاءه مال من جهة وزعه عليهم (يعني على أهل الكوفة حصراً تقريباً) بالسوية ، وفي إحدى السنين وزع عليهم أموالاً جاءته ثلاث مرات ، ثم أتته دفعة رابعة ، فخطب في الناس قائلاً : (**اغدوا إلى عطاء رابع ، فوالله ما أنا لكم بخازن . وكان أسوةً للناس يأخذ كما يأخذ الواحد منهم**) ، لأنه لم يكن يبقي في بيت المال شيئاً ، وهذا يتعارض مع أبسط شروط بناء الدول المنظمة ، ذلك لأن المال عصب الدول وإداراتها المختلفة . وكل ذلك جعل أهل الحجاز يُهَمَّشون ويعانون ، إلا من كان منهم قد أثرى ثراء عظيماً زمن عمر وعثمان وحافظ على ثروته واستثمرها : فقد كان يروى عن هؤلاء ما هو أقرب إلى الخيال فيما كانوا يملكون من أموال وجوارٍ وعبيد وما كانوا يبتنون من دور وقصور ، وما عندهم من أنواع الخيل والإبل وسواها ..

٣- تهذيب الأنفس ورقي الأذواق : قام الإسلام حين بثَّ تعاليمه الراقية بتهذيب نفوس الناس في منطقة الحجاز كلها ، ولاسيما أن هذه المنطقة هي التي شهدت نزول الوحي على النبي (ص) وكفاحه من أجل إبلاغ دعوته وهجرته وانتصاراته في الحجاز أولاً ، لتكون قاعدة انطلاقه إلى كل أنحاء جزيرة العرب ، ولتكون أيضاً قاعدة انطلاق جيوش الفتوح الإسلامية خارج جزيرة العرب أيضاً . ولم تمض عقود قليلة حتى عُرِف أهل الحجاز بالظَّرْف والرقة واللباقة دون سائر الأمصار الإسلامية .

٤- الترف والفراغ : كان الناس قد عرفوا في حواضر الحجاز ، إثر حركة الفتوح الواسعة ، الثراء الواسع ، كما أن الأمويين عملوا على عزلهم عن صراعات السياسة

والسياسيين ، فمالوا إلى الدعة والعافية ، ورأوا بين أيديهم الجواري والعبيد للقيام بخدمتهم في كل مجال ، وأصبحوا السادة الذين لا شغل لهم سوى إصدار التعليمات والتوجيهات لهم ، وما كان عليهم سوى التنعم بطيبات الحياة ، وقضاء أوقاتهم في العبادة ، وطلب العلم على أيدي صحابة النبي (ص) ومن نشأ بين أيديهم من علماء التابعين ، وكان كثير منهم من موالي العرب أنفسهم ، كما أنهم مالوا إلى تزجية أوقات فراغهم بالنُّزَه ، والزيارات ، والمجالس ، وراحوا يقضون أوقاتهم بالأحاديث والمحاورات وسرد ذكريات الدعوة والخلفاء الراشدين وأعمالهم .

٥- فَوْرَة جيل من الشباب : نشأ في ظل الغنى والفراغ والترف الذي شهده الناس في حواضر الحجاز ، جيل جديد من أبناء الصحابة من أنصار ومهاجرين ومن أبناء الأسر والعشائر والقبائل العريقة في تلك الحواضر ، فسعى أكثرهم إلى أن يطلبوا الحسن والجمال أينما ثقفوه ، وراحوا يستمتعون بالغناء الذي نشأ في حواضرهم ، ويتتبعون أخبار الظرفاء ، بل كان كثير منهم ظريفاً أو يتظارف ، أي أن هؤلاء الناشئة من جيل الشباب راحوا يعبون من طيبات الحياة وملذاتها الشيء الوفير .

٦- تعريب فن الموسيقى والغناء : كان غناء العرب إما حداء للإبل وإما غناء بسيطاً بالصوت والدُّف ، وأما الغناء الأصيل المصحوب بآلات ذلك الزمن فقد كان الروم والفرس يأتون بها إلى داخل الجزيرة العربية في الجاهلية ليضربوا القباب ، وكان أغلب المغنين من النساء الأعجميات اللواتي يغنين بالرومية أو الفارسية بألحان خاصة باللغتين (ويصحب الغناء رقص الراقصات وشرب الخمر كما أشار إلى ذلك **طرفة بن العبد** في معلقته **والأعشى** في معلقته) ، وكان أكثر المقبلين على ذلك من شبان القبائل الأغنياء ، فلما كان الإسلام اختفت ظواهر الغناء القديم وحل محله لون آخر بالعربية طوَّعه بعض موالي العرب من تلك الأصول الرومية أو الفارسية أو الحبشية ، فيما يمكن أن ندعوه **حركة تعريب الغناء** ، وكان أول من أسس للغناء العربي **سعيد بن مِسْجَح** (**مولى بني مخزوم**) بمكة زمن معاوية ، وكان أسود البشرة لكونه

حبشياً غالباً ، فقد رحل إلى الروم وفارس ودرس ألحانهم وتعلم العزف على الآلات وعاد ليمارس مهنة الغناء ، وتتلمذ عليه مكيان (**هما ابن سُرَيْج وابن مُحْرِز**) ، ومدنيان (**هما مَعْبَد ومالِك**) . وقد أُعجب العرب في حواضر الحجاز بأصوات المغنين والمغنيات من الموالي المستعربين ، واشتهر عدد كبير منهم في مكة والمدينة ، وكانت مجالسهم تكتفي بالغناء بأشعار الغزل خاصة ، لأنها أنسب الأشعار للتلحين والغناء ، وأقرب إلى الأسماع والقلوب . وقد طوِّعت الآلات الأعجمية لتناسب الأذن العربية ، ونتوقع أن تكون موسيقات الفرس الشرقية أقرب إلى الأذن العربية ، كما نتوقع أن تكون ألحان الروم في دولة الروم الشرقية (البيزنطية) قد طُوِّعَتْ عبر ستة قرون في منطقة الشرق العربي (في الشام خاصة) لها أيضاً ، فاقتربت من أذواق العرب فيها وفي جزيرة العرب . وقد ظل فن الغناء هذا حكراً على المغنيات والمغنين الموالي دون العرب إلى أن شاركهم فيه بعض العرب في العصر العباسي الأول . وكان الغناء من أكثر أسباب تحفيز الشعراء وتحريضهم على إنتاج شعر الغزل في حواضر الحجاز . وكانت الشام في العصر الأموي تستقدم أو تستورد المغنيات والمغنين المشاهير من حواضر الحجاز إلى قصور الخلفاء والأمراء ودور الأغنياء ، وصار الشراب يصحب سماع الأغاني ، ويجمع لنا كتاب (**الأغاني**) لأبي الفرج الأصفهاني أخبار هذا الفن وأخبار زعمائه وأخبار الشعراء الذين غُنِّي بشيء من أشعارهم ، وكانت الأغاني وألحانها تسمى (أصواتاً) . وقد أسهم الغناء في ترقية أذواق الناس في الحجاز وفي تنمية حسهم المرهف لتذوُّق كل ما هو جميل في الألحان والأصوات والكلمة الحسنة .

٧- انغلاق باب القول أمام أهل الحجاز في كثير من الأنواع الشعرية : ومما شجع على ازدهار شعر الغزل في حواضر الحجاز وباديها ، إلى جانب العوامل والأسباب المذكورة ، أن أهل الحجاز عاشوا في ظل سلام اجتماعي طويل الأمد في القرن الأول للهجرة خاصة ، ولم يكن بينهم حروبٌ ولا إحن ولا عصبيات قبلية ولا

نزاعات سياسية ولا فرقٌ دينية أو فكروية تسعى إلى السلطان ، حتى ينتجوا شعراً في **الهجاء والنقائض والفخر والسياسة والفرق** ، كما كان الشأن في العراق وخراسان ، كما أنهم كانوا أغنياء فلا حاجة لهم في أن يسعوا إلى التكسب بشعرهم عن طريق **مدح** الخلفاء والأمراء والولاة والسادة . كما أن أهل الحجاز كانوا مقبلين على الحياة ، ومنغمسين في مباهجها وطيباتها ، فلم يكونوا يميلون إلى ذكر الموت فلم يزدهر بينهم شعر **الرثاء** . وهكذا أفرغوا طاقاتهم الشعرية فيما يرضي أذواقهم ويمتع أيامهم ويسر نفوسهم متمثِّلاً في شعر الغزل الرقيق الذي يصف الحسن والجمال والعواطف والمغامرات .

والجدير بالذكر — هنا – أن هذا الغزل النابت في الحجاز ، خلال العصر الأموي ، يتمثَّل في مدرستين نشأتا في بيئتين متجاورتين أولاهما (**بيئة حواضر الحجاز**) ، وكانت تعرف باسم مؤسسها (**عمر بن أبي ربيعة المخزومي**) أو باسم البيئة التي ترعرع فيها وانتشر وهي حواضر الحجاز الثلاث (**مكة والطائف والمدينة**) (**الغزل الحضري**) ، وثانيتهما (**بيئة بوادي الحجاز**) ، وكانت تعرف باسم قبيلة مؤسسها (**جميل بن مَعْمَر العُذْرِيّ**) أو باسم بيئتها (**الغزل الأعرابي**) ، وكان لكل من المدرستين شعراؤها وسماتها وخصائصها الأسلوبية التي تميزها من الأخرى ، ونتناول فيما يلي أولى هاتين المدرستين :

مدرسة الغزل الحضري

(عمر بن أبي ربيعة المخزومي)

(م٩٣هـ)

تمهيد :

يُعَدّ عمر بن أبي ربيعة المخزومي المؤسِّس الحقيقي لتيار شعر الغزل الحضري في بيئة الحجاز (**المدينة ومكة والطائف**) ، وسوف نتبيَّن أهم سِمات هذا اللون من الغزل من خلال حياته وأشعاره ، نظراً لتوافر كل هذه السمات فيهما .

١ – اسمه ونسبه وأسرته :

كان عمر ينتسِب إلى بطن عريق من بطون قريش هو (**مخزوم**) الذي برزت منه في الجاهلية والإسلام شخصيات مرموقة الجانب ، ومن جملة هذه الشخصيات (**أبو ربيعة**) ، جدُّ عمر ، الذي كان يلقَّب (**ذا الرُّمْحَيْنِ**) إما لطوله وإما لأنه قاتل مع قريش في الجاهلية برمحين يومَ الفِجَار بعُكاظ .

وكان (**عبد الله بن أبي ربيعة**) ، والدُ عمر ، يلقَّب في قريش بـ (**العِدْل**) لأنه كان يكسو الكعبة وحدَه عاماً من ماله الخاص ، وكانت قريش كلها تكسوها من أموالها عاماً آخر ، فكأنما أصبح معادِلاً لها في ذلك . وهذا شرَفٌ عظيم له ، وهو دليلٌ على الثراء الواسع الذي كان يتمتع به ، وأنه كان أكثر قريش مالاً ، وسبب ذلك أنه كان تاجراً موسِراً من تجار قريش ، وكان متجره إلى اليمن السعيد .

وعبد الله هذا هو ابن عم (**خالد بن الوليد**) .

وكان لعبد الله في الإسلام عبيد كثيرون من الأحباش يتصرَّفون له في كل المهن . وربما كان سبب ذلك أن الرسول (ص) استعمله – إثر دخول أهلها في الإسلام – على

الولاية الأولى من ولايات اليمن الثلاث وهي (**الْجَنَد** ، **وصنعاء** ، **وحَضْرَمَوْت**) ، وظلّ والياً على (**الجنَد**) في زمن أبي بكر وعمر وعثمان (ر) .

وتزوَّج عبد الله أثناء ولايته تلك من امرأة يمنية تدعى (**مَجْداً**) ، فأنجبت له في الليلة التي قُتِل فيها (**عمر بن الخطاب**) سنة ٢٣هـ ، ولداً أسماه (عمر) تخليداً لذكرى الخليفة ، أملاً في أن يكون على شاكلته ، وكان مولد ابنه عمر هذا في مكة غالباً .

فلما ذُكِر ذلك **للحسن البصري** – بعد اشتهار عمر بالشعر الغزلي – علَّق عليه قوله : (**أيُّ حَقٍّ رُفِع ، وأيُّ باطِلٍ وُضِع !..**) .

ولما حوصِر الخليفة عثمان (ر) سنة ٣٥هـ في داره بالمدينة استنجد بولاته على الأمصار ، فجاء عبد الله بن أبي ربيعة من (**الْجَنَد**) باليمن ، فلما شارف مكة سقط عن مطيته فمات ، وأصبح ابنه عمر يتيماً وهو في الثانية عشرة من عمره ، وكان له أخ من أبيه عُرِف بالصلاح وأصبح والياً على البصرة أيام ابن الزبير ، هو (**الحارث بن عبد الله المخزومي**) ، وهو من سادات قريش ، وكانت أُمُّه أَمَةً سوداء . وله أخ آخر من أبيه يدعى عبد الرحمن .

حضنت أم عمر في بيتها بمكة ابنها عمر ، وأحاطته بالرعاية والحنان ، وكان حولها عدد كبير من الجواري والعبيد في خدمتها ، وفي ظل هذا الجو نشأ عمر بين الجواري لا يكاد يختلط بأحد من أترابه أو رجال مكة ، فنشأ فتى مترفاً مدلَّلاً يعرف من أسرار النساء وعواطفهن وأساليبهن في الكلام أكثر مما يعرف عن الرجال وأساليبهم في الكلام . وكان نتيجة ذلك باحثاً عما يَسُرُّه ويَلَذُّه في الحياة ، وكان دأبه سماع الغناء والتطيب ولبس الحلل الجميلة وتتبع الجمال والحسن في كل شيء ، وشبَّ على ذلك ثم شاب عليه ، وهو القائل :

إنّي امْرُؤٌ مُوْلَعٌ بالْحُسْنِ أَتْبَعُهُ لا حَظَّ لِيْ منهُ إلا لَذَّةُ النَّظَرِ

تزوج عمر وأنجب ولداً اسمُه (**جُوَان**) وبنتاً اسمُها (**أمةُ الواحد**) ، ومع ذلك كانت كنيته بين الناس (**أبا الخطَّاب**) ، تيمُّناً بعمر بن الخطاب الذي سُمِّي اسمِه .

٢– اختصاصه بشعر الغزل :

ولما تفتَّحت موهبته الشعرية في أوائل العصر الأموي ، وهو في حدود السابعة عشرة إلى العشرين من سِنِّه ، كانت أجواء الحجاز قد دخلت في فراغ سياسي وعزلة عن شؤون الدولة ، وبدأت حركة الغناء تزدهر بمكة وحواضر الحجاز ، وكان باب القول مغلقاً أمامه في معظم الأنواع الشعرية المعروفة في عصره ، وذلك للأسباب التي رأيناها من قبل ، فلم يكن له إلا أن يُرْضِي ذاته بشعره ، فأقبل على الغزل وحده ، وأنتج لنا قصائد بسيطة مختصة به من أول القصيدة إلى آخرها ، ولم يخرج عن هذا النهج في قول الشعر ، فكان ثاني الشعراء الذين اختصوا بشعر الغزل وحده في مقطعاته وقصائده على حدٍّ سواء ، بعد الشاعرة الخنساء التي اختصت بالرثاء ، ولذا نجد عمر يجيب الخليفة عبد الملك بن مروان حين قال له : (**ما يمنعك من مدحنا ؟**) ، بقوله : (**إني لا أمدح الرجالَ ، وإنما أمدح النساء**) ، وما مدحُ النساء إلا هذا الغزل الذي أبدع فيه وشغل الناس به في زمانه .

٣– شاعريته ومنْزلته في الشعر وموقف الناس من شعره :

عُرِفَ عمر وشعرُه في بيئة الحجاز خاصة ، وامتدت شهرته في حياته إلى الشام والعراق وغيرها من البيئات الأخرى في دولة الخلافة . والغريب أن **ابن سلام** يضع في **الطبقة السادسة** ، من طبقات فحول الشعراء الإسلاميين ، أربعة شعراء عرفوا بالغزل وحده أو بالغزل وغيره هم (**ابن قيس الرقيات ، وعبد الله بن محمد الأحوص الأنصاري ، وجميل العذري ، ونُصَيْب بن رباح مولى عبد العزيز بن مروان**) ، ويذكر في ترجمته لابن قيس الرقيات قوله : (**وكان غزِلاً ، وأغزلُ من شعره شعرُ عمر بن أبي ربيعة ، وكان عمر يُصرِّح بالغزل ، ولا يهجو ولا يمدح ، وكان عبد الله** [كذا! يعني عبيد الله بن قيس] **يشبِّب ولا يُصرِّح ، ولم يكن له معقودُ عشقٍ كعمر بن أبي ربيعة**) ، وهذا كل شيء عنه عند ابن سلام .

عُرِف عمر بالظَّرف وحسن الحديث وبأخباره مع معشوقاته من الطبقة العليا في المجتمع في الحجاز ، أو اللواتي يأتين إليه من الشام والعراق زائرات أو حاجَّاتٍ أو معتمرات . وعشق عمر ليس بمعنى تبادل عاطفة الحب الحقيقية والطبيعية العميقة والمخلصة ، وإنما هو نوع من الإعجاب الذي يومض في حياته وميضاً ثم يزول ، ويكون إعجابه بجمال المرأة ، ويكون إعجاب المرأة بشعره وأحاديثه وخفة دمه وظَرْفِه . ولا يتعدَّى الأمر المجالس التي تكون فيها نساء أخريات أو وصيفات أو حراس ، أما الانفراد الذي يصفه عمر بإحداهن فمن بنات خياله التي كانت تصوِّر له مغامرات ليلية أو لقاءات بعيداً عن أعين العذال والرجال الغيارى وسوى ذلك ، مما أقر عمر مرة وهو كبير في السن بأنه مجرد خيال بمثل قوله وقد حلف برب الكعبة : (**وربِّ هذه البَنِيَّة .. ما كشفتُ ثوباً عن حرام !**) ، وقوله مرة أخرى : (**والله ما أعلم أني ركِبْتُ فاحشة قطُّ !**) .

وروى صاحب (**الأغاني**) أن العرب كانت (**تقرّ لقريش بالتقدُّم في كل شيء عليها إلا في الشعر ، فإنها كانت لا تقرّ لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرَّتْ لها الشعراء بالشعر أيضاً**) .

وأما المغنون والمغنيات في الحجاز فكانوا من أكثر الناس إفادة من شعر عمر ، حتى إن بعضهم كان يسأله شيئاً من شعره ليغني به ، لما عرف عن شعره من سهولة ووضوح ورقة وجمال معنى وجدته ، ولم يكن الناس من قبل يسمعون بمثل شعره الرقيق هذا الذي كان يغرف كلماته وتعابيره من لغة الحياة اليومية . وكان عمر يكافئ من يغنِّي بشعره من المغنين والمغنيات بمكافآت مادية مجزية .

وأما الشعراء فكانوا يعبرون عن شدة إعجابهم بغزله ، فقد قال **نُصَيْبٌ** مرة : (**عمر بن أبي ربيعة أوصفُنا لربات الحِجال**) . وكان **جرير** يقول : (**إنكم يا أهل المدينة يُعجِبكم النسيب ، وإن أنسبَ الناس المخزومي ، يعني عمر بن أبي ربيعة**) . وسمع **الفرزدق** شعراً لعمر فصاح : (**هذا والله الذي أرادته الشعراء**

فأخطأته وبكتِ الديار) . واجتمع **الفرزدق** في الحجاز مرة بعمر فسمع منه شيئاً من غزله ، فقال له : (**أنت – والله يا أبا الخطّاب ! – أغزلُ الناس ، لا يُحْسِنُ والله الشعراءُ أن يقولوا مثل هذا النسيب ، ولا أن يَرْقُوْا مثل هذه الرُّقْيَة !**) .

وأما المحافظون من الناس في المجتمع فقد كانوا يحذِّرون من شعره ، فكان **ابن جُرَيْجٍ** يقول : (**ما دخل على العواتق في حِجالهن شيءٌ أضرُّ عليهن من شعر عمر**) .

وقال **أبو المقوّم الأنصاري** : (**ما عُصِي اللهُ بشيءٍ كما عُصِي بشعر عمر**) .

وقال **هشام بن عروة** : (**لا تُرَوُّوْا فتياتِكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورَّطْنَ في الزِّنا تورُّطاً**) . ورأى بعضهم دفتراً في يد فتاة فيه شعر عمر فقال : (**تدخلين على النساء بشعر عمر ؟! إن لشعره لموقِعاً في القلوب ، ومدخلاً لطيفاً ، لو كان شعرٌ يَسْحَرُ لكان هو ، فارجعي به !**) .

أما الرواة والنقاد ، فقد سُئِل **حماد الراوية** عن شعر عمر فقال : (**ذاكَ الفُسْتُقُ المقَشَّر !**) .

ذكر عمر مرة للوليد بن عبد الملك قوله : (**ولي غلامان هما عندي بمنْزلة الولد ، وهما يرويان كل ما قلتُ**) ، وهذا يعني أن شعره كان يحفظه غلامان مختصان بروايته لمن شاء من الناس . وكان بعض الناس يدوِّن شيئاً من شعره هنا أو هناك . إضافة إلى حفظ المغنين الأشعار التي يغنون بها من شعره . ويبدو لنا أن كثيراً من شعره كان سائراً متداولاً بين الناس في الآفاق .

٣– غاية عمر من غزله :

ذهب بعض الباحثين إلى إن عمر بن أبي ربيعة لم يتغزَّل بأَمَةٍ أو جاريةٍ قطُّ ، وإنما كان كل غزله بنساء عربيات حرائر من بنات عِلْيَة القوم وأشراف المجتمع والقبائل العربية المشهورة ، وكان يصرِّح بأسماء هؤلاء النساء معروفات النَّسَب من غير حَرَج ولا خوف من مؤاخذة أو مَلامٍ من أحد ، وكأنما كان أمر غزله بهن والإشادة بجمالهن

وحسنهن عُرفاً مقبولاً وغير مستهجنٍ في ذلك العصر في بيئة حواضر الحجاز ، يقول **د. شوقي ضيف** بهذا الشأن : (**وكان الذوق العربي العام لا يمنع أن يُشِيد شاعرٌ بجمال امرأة ، بل لعلَّ في هذه الإشادة ما يُعَرِّف بها وبجمالها ، ولذلك كانت تطلبها المرأة العربية ولا تجد فيها غضاضة ، بل على العكس كانت تجد فيها طَرَافةً وإعلاناً عنها ، وتمهيداً لأن يطلبَها الأزواج**) ، خلافاً للاعتراض الذي كان شعراء المدرسة العذرية يلاقونه لذكرهم أسماء محبوباتهم الصريحة التي كانت أولى معانياتهم فيها حرمانُهم من الزواج منهن ، وكان من نتائج ذلك أنهم كانوا يضطرون أحياناً إلى التكنية عنهن بأسماء أو كُنَىً أخرى ، بل كان أهلوهن يتهددونهم بالقتل أحياناً ، وكانوا يشكون أمرهم إلى الولاة والعمال الذين كانوا يترصدون لهم ويتوعدونهم بالسجن : فما تفسير التصريح عند عمر ؟ وما تفسير غزله بالعربيات الشريفات وحدهن دون غيرهن ؟

والجواب عن ذلك ، في رأينا ، أن الأعجميات من الإماء والجواري الفارسيات والروميات وغيرهن كَثُرن في المجتمع العربي وبين أيدي العرب ، منذ زمن الفتوح الأولى أيام عمر بن الخطاب (ر) ، وكان فيهن جمال وخلابة ليست في الحرائر العربيات ، حتى إن عمر (ر) حذَّر الناس من غلبتهن على العربيات ، وبالفعل أقبل على الزواج بهن الشبابُ العربي ، وكسدت سوق الحرائر العربيات وأخذت العنوسة سبيلها إليهن ، فجاء عمر بن أبي ربيعة يحسِّن في شعره الغزلي هؤلاء الحرائر ، وللشعر مفعول سحري في نفوس العرب ، كما هو معروف ، فكان إشهار إحداهن في الآفاق يعني إقبال الخطاب عليها إن كانت غير متزوجة ، وللشهرة فعل السحر ، وإن لم تكن المرأة متزوِّجة كان الشعر فيها شهرة لها وتحسيناً لجمالها بين العرب تفاخر به . ويذكرنا ذلك بالرجل الفقير الذي أتى ببناتٍ عشرٍ كُنَّ كسدن عنده إلى سوق عكاظ ، فلقي **الأعشى البكري** وشكا له همَّه وذبح له ناقة وصار يشوي لحمها وشحمها ويطعمه

حتَّى شَبِع ، وسقاه من زِقِّ خَمْرٍ حتَّى ارتوى ، فوقف في عكاظٍ وقد تجمع الناس حوله يمدح هذا الرجل ويشير إليه ، بمثل قوله :

يداكَ يَدا صِدْقٍ فكَفٌّ مفيدَةٌ وأُخْرى إذا ما ضُنَّ بالزادِ تُنْفِقُ
تَرَى الجودَ يَجْرِي ظاهراً فوق كما زانَ مَتْنَ الهنْدُوانِيِّ رَوْنَقُ وجهه

فما مضت بضعة أيام إلا وقد تقدَّم لخطبة بناته سادة قبائل أو أبناؤهم ونفقن جميعاً ، لسمعة أبيهن الطيِّبة التي نشر عبقَها الشعرُ على لسان شاعر فحل مشهور في زمانه هو الأعشى . وهكذا كان شعر عمر بن أبي ربيعة يفتن النساء ويفتن الرجال ، وقد تزوج عمر من اثنتين مِمَّنْ كان قد عرفهن وتغزَّل بهن طويلاً ، هما (كَلْثَم بنت سعد المخزومية ، وزينب بنت موسى الجمحية) ، وقد هَوِي الثُّرَيَّا بنت علي بن عبد الله من بني عبد شمس ، وكان يحبّ أن يتزوَّج منها ، إلا أن أهلها زوَّجوها من أخٍ لعمر بن عبد العزيز بمصر يُدْعَى سُهَيْلاً . ومِمَّن تغزَّل بهن فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ، ورملَة بنتٍ عبد الله الخزاعية ، وهند بنت الحارث الْمُرِّيّة ، وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله التيمي ، ولبابة ، وعفراء ، وأسماء ، وعُتَيْمة ، ونُعْم ، والرَّباب ، والبَغُوْم ، إلخ . وكُنَّ نحو ثلاثين امرأة .

ولكن ينقض هذه النظريةَ ، نظرية تلميع الحرائر العربيات ، قطعتان قالهما في (**حُمَيْدَة جارية ابن تُفَّاحة**) رواهما أبو الفرج في أغانيه وتغنَّى بهما (**مَعْبَد**) ، ومن ذلك قوله :

يا قلبُ هل لكَ عن حُمَيْدَةَ زاجِرُ أمْ أنتَ مُدَّكِرُ الْحَياءِ فصابِرُ
فالقلبُ من ذِكْرَى حُمَيْدَةَ مُوْجَعٌ والدمعُ مُنْحَدِرٌ وعَظْمِيَ فاتِرُ

٤– صلة عمر بمن تغزَّل بهن :

كان عمر يترصد في مواسم الحج والعمرة كل القادمات من الشام والعراق وغيرهما ، ويتتبع بنظره أجمل النساء ، ويحاول التعرُّف عليهن بأي طريقة ، مباشرة أو عن طريق

رسول ، فكان بعضهن يستجبن له فيلتقي بهن في مجالس داخل بيوت ، أو في خيام ، أو في العراء في الليالي المقمرة خاصَّة ، بحضور وصيفاتهن وجواريهن وبعض النسوة الأخريات أو بوجود حراسهن ، وكان بعضهن يشتقن إلى شعره وأحاديثه فيرسلن إليه للحضور وتزجية بعض الوقت معه ، وكان بعضهن يصدُدْنَه ويتهربن منه ، ويقسُوْن معه بالكلام . غير أن عمر كان يهوِّل في علاقته بالنسوة في كل الأحوال المذكورة ، ويصوِّر مغامرة من المغامرات على نمط امرئ القيس ، من غير أن يكون لها أساس من الصحة ، وقد اعترف هو نفسه في أخريات حياته – حالفاً بالله تارة وبالكعبة تارة أخرى – بأنه ما اقترف فاحشة قطُّ . وكانت كلّ صلاته بالنساء التي تغزَّل بهن علاقةَ إعجاب بما يتمتَّعن به من جمال وحسن من وجهة نظره بطبيعة الحال ، لأن تذوق الجمال مختلف بين الناس ، كما أن الإحساس به متفاوت أيضاً .

٥– سمات الغزل العمري (أو الحضري) عموماً :

اتَّسم غزل عمر ومن تبعه من الشعراء في مذهبه بجملة سِماتٍ جعلته يتميز بها من سمات الغزل التقليدي من جهة ، ومن سمات الغزل العذري من جهة أخرى ، وأهمها :

١) تعدُّد النساء اللواتي يتغزَّل عمر بهن :

وقد رأينا أن عمر كان مولعاً بالجمال والحسن يتتبعه أينما وجده ، وكان هذا الجمال يثير إعجابه ، فيعبِّر عن ذلك تعبير العاشق الولهان من غير أن يكون في الحقيقة كذلك ، ولذا نجده يتنقَّل من امرأة إلى أخرى سواء أكانت عَزَبَة أم متزوِّجة ، فإذا غابت إحداهن عن عينيه نسيها ليعبر عن إعجابه بأخرى . ومن هنا كانت كثرة أسماء النساء في شعره الغزلي ، وقد رأينا آنفاً أسماء عددٍ يسير منهنّ .

٢) آنية العواطف الجياشة نحو من يتغزَّل بهن :

كان عمر يذكر لكل واحدة ممن أظهر حبَّه (إعجابه) بها أنها آخر من أحب وأنه سيبقى على حبها إلى الأبد ، وأنها آخر المحبوبات في حياته ، كقوله في زينب

الجمحية التي تعلَّق قلبه بها من وصف لها سمِعه ابن أبي عتيقٍ صديقه ولم يكن قد رآها :

لَمْ تَدَعْ للنساءِ عندِيَ حظّاً غيرَ ما قُلْتُ مازِحاً بِلِساني

إنَّ قلبيْ بعدَ الذي نلتُ كالْمُعَمَّى عن سائرِ النِّسْوَانِ منها

فلما لامه ابن أبي عتيق على تغزله بها قال له :

لا تَلُمْنِيْ وأنتَ زَيَّنْتَها لِيْ أنتَ مِثْلُ الشيطانِ للإنسانِ

ويقول في أخرى :

واللهِ ما أَحْبَبْتُ حُبَّكُمُ لا ثَيِّباً خُلِقَتْ ولا بِكْرَا

٣) وصف نفسه معشوقاً وملاحقاً من النساء :

وكان عمر يصوِّر في شعره أن النسوة هن اللواتي ينصِبْنَ له الشِّبَاك ، وهن اللواتي يلاحقنه ، وهن اللواتي يبحثن عنه ، وهذا غاية النَّزْعة (النرجسية) ، أي : حب الذات عند الشاعر ، ولنقرأ هذا الحوار الذي ينقله لنا وجرى بين أختين حاجتين أو معتمرتين تطوفان حول الكعبة المشرفة :

قالتْ لِتِرْبٍ لها تُحَدِّثُهَا لَنُفْسِدَنَّ الطَّوَافَ في عُمَرِ

قُومِيْ تَصَدَّيْ لهُ لِيَعْرِفَنَا ثُمَّ اغْمِزِيْهِ يا أُخْتُ في خَفَرِ

قالتْ لها قد غَمَزْتُهُ ثُمَّ اسْبَطَرَّتْ تَسْعَى على فأبَى أَثَرِي

وتقول عنه أخرى :

قَد حَلَفَتْ ليلةَ الصَّوْرَيْنِ جاهِدةً وما علَى المرْءِ إلا الْحَلْفُ

مجتَهِدَا

لأُخْتِها ولأُخْرَى من مَناصِفِها لقد وَجَدْتُ بهِ فوقَ الذي وَجَدَا

لَوْ جُمِّعَ الناسُ ثُمَّ اخْتِيْرَ صَفْوُهُمُ شَخْصاً من الناسِ لَمْ أَعْدِلْ بِهِ أَحَدَا

٤) تقمُّصه وصف لواعج الحب عند العاشقين الحقيقيين :

يقرأ المرءُ شعرَ عمر في كل قطعة أو قصيدة ، فيلاحظ أنه يصف كل أنواع المعانَيَات التي يكابدها العاشق الحقيقي ، من غير أن يكون لها عنده أيُّ نصيب من الصِّدْقِيّة في الواقع ، لأن هذا الوصف لا يكاد يتجاوز الشفتين ، وكأنه أسطوانة يُشَغِّلها عند مخاطبة أي امرأة ، فهو يقول مرَّة في إحداهن :

ما كنتُ أَحْسِبُ أنَّ حُبّاً قاتِلِي حتَّى بُلِيْتُ بما بَرَى جِسْمِي

أَوْرَثْتِنِيْ داءً أُخَامِرُهُ أَسْماءُ .. بَزَّ اللحْمَ عن عَظمِي

ويقول في أخرى :

حُمِّلْتُ مِنْ حُبِّيْكِ ثِقْلاً والْحُبُّ يُحْدِثُ لِلْفَتَى أَحْزَانا فادِحَاً

ويقول في حب ثالثة :

يا أيُّها العاذِلُ في لَسْتَ مُطاعاً أيُّهَا حُبِّها العاذِلُ

أنتَ صَحِيْحٌ مِنْ جَوَى وحُبُّها لِيْ سَقَمٌ داخِلُ حُبِّها

إنَّ الذي لاقَيْتُ من لَمْ يَلْقَهُ حافٍ ولا ناعِلُ حُبِّها

٥) تحرُّرُه في التعبير الحسي عن المحبوبة :

كان الغزل العمري يتناول بصراحة أحياناً علاقته بالمحبوبة التي يتغزَّل بها خلال المغامرة الليلية خاصة ، وهو ما يمكن أن نسميه (غزوات العشاق) ، بأن يصف بعض الممارسات المتخيَّلة عموماً ، كقوله في إحدى هذه المغامرات :

فأذاقَتْنِيْ لَذِيْذاً خِلْتُهُ ذَوْبَ نَحْلٍ شِيْبَ بالْماءِ الْخَصِرْ
ومُدَامٍ عُتِّقَتْ في مِثْلِ عَيْنِ الدِّيْكِ أو خَمْرِ جَدَرْ بابِلِ
فَتَقَضَّتْ ليلَتِيْ في مرَّةً ألْثِمُها غيرَ حَصِرْ نِعْمَةٍ
وأُفَرِّيْ مِرْطَها عَنْ مُخْطَفٍ ضامِرِ الأَحْشاءِ فَعْمِ الْمُؤْتَزَرْ
فَلَهَوْنا ليلَنا حتَّى إذا طَرَّب الدِّيْكُ وَهاجَ الْمُدَّكَرْ
حَرَّكَتْنِيْ ثُمَّ قالَتْ جَزَعاً ودُمُوْعُ العَيْنِ مِنْها تَبْتَدِرْ
قُمْ صَفِيَّ النَّفْسِ لا قد بَدَا الصُّبْحُ وذا بَرْدُ السَّحَرْ تَفْضَحُنِيْ

وكان عمر يجري على هذه الطريقة في سائر مقطعاته وقصائده التي وصف فيها هذه المغامرات الخيالية ، وكان الناس يعلمون أن كلامه هذا لم يكن يعدو التباهي باللسان ، إلا أنه يبقَى وصفاً جريئاً لم يكن العذريون ، على سبيل المثال ، لِيُجْرُوهُ على ألسنتهم ، نظراً لأنهم كانوا يرون المحبوبة الوحيدة التي أحبوها أسمى من أن تكون موضوع مغامرة حسية عابرة للمتعة كهذه يفضحونها بها ، ولأنهم كانوا ينظرون إليها نظرة فيها شيء كثير من الاحترام الذي يصل إلى حدِّ عالٍ من السُّمُوِّ عن الحسيات العمرية .

٦) المرَح والتفاؤل :

كان غزل عمر مليئاً بالمرح والتفاؤل والحبور والسرور والمزاح والحركة والنشاط ، فلنقرأ له هذه الأبيات التي يصف فيه أمنيات بعض النسوة وهن في نزهة طيِّبة في الطبيعة بأن لو يأتيهن عمر ، وما إن انتهين من أمنيتهن إذا به يخطر أمامهن على صهوة جواده ، وينضم إليهن :

لِلَّتِيْ قالَتْ لأَتْرَابٍ لَها قُطُفٍ فِيْهِنَّ أُنْسٌ وَخَفَرْ
إِذْ تَمَشَّيْنَ بِجَوٍّ مُوْنِقٍ نَيِّرِ النَّبْتِ تَغَشَّاهُ الزَّهَرْ
بِدِمَاثٍ سَهْلَةٍ زَيَّنَها يَوْمُ غَيْمٍ لَمْ يُخَالِطْهُ قَتَرْ
قَدْ خَلَوْنَا فَتَمَنَّيْنَ إِذْ خَلَوْنا اليَوْمَ نُبْدِيْ ما نُسِرُّ بِنا
فَعَرَفْنَ الشَّوْقَ في وحَبَابُ الشَّوْقِ يُبْدِيْهِ النَّظَرْ مُقْلَتِهَا
قُلْنَ يَسْتَرْضِيْنَها لَوْ أَتَانا اليَوْمَ في سِرٍّ مُنْيَتُنَا عُمَرْ
بَيْنَما يَذْكُرنَنِيْ أَبْصَرْنَنِيْ دُوْنَ قَيْدِ الْمِيْلِ يَعْدُو بِي الأَغَرّْ
قُلْنَ تَعْرِفْنَ الْفَتَى ؟ قُلْنَ قَدْ عَرَفْناه وهَلْ يَخْفَى القَمَرْ نَعَمْ

٧) استعمال المحاورة على نطاق واسع :

كان عمر مولعاً في شعره بأسلوب الحوار ، حتى أصبح ظاهرة بارزة في أساليبه التعبيرية في كل أشعاره ، وذلك من مثل قوله في حوار بينه وبين إحدى محبوباته :

قالَتْ لَنَا ودَمْعُهَا وَجْداً علَيْنا يَذْرِفُ
لَهْفِيْ ولَيْسَ نافِعِيْ علَيْكُمُ التَّلَهُّفُ

قُلْتُ فإنِّيْ هائِمٌ صَبٌّ بِكُمْ مُكَلَّفُ
قالَتْ بَلَ انْتَ مازِحٌ ذُوْ مَلَّةٍ مُسْتَطْرِفُ
لَسْنا وإنْ حَدَّثْتنا يَغُرُّنا ما تَحْلِفُ
وَدِدْتُ لَوْ أنَّكَ فِيْ قَوْلِكَ هذا تُنْصِفُ
تَجْزِيْ بِمِثْلِ وُدِّنا قُلْتُ لَهَا بَلْ أُضْعِفُ

٨) استعمال لغة الخطاب اليومي في الحجاز :

يبدو لنا من قراءة ديوان عمر أنه كان يستعمل (مذهب اللين) في شعره كله ، بل كان يغرِف تعابيره وصوره من لغة الخطاب اليومي الذي يجري بين الناس وعلى ألسنتهم في الحجاز ، بكل ما فيه من تفاصيل ، ونلحظ ذلك على سبيل المثال في قوله :

أُنْبِئْتُ أَنَّكِ إِذْ أَتاكِ كِتابُنا أَعْرَضْتِ عِنْدَ قِرَاتِكِ العُنْوَانا
ونَبَذْتِهِ كالعُوْدِ حِيْنَ رَأَيْتِهِ فاشْتَدَّ ذاكِ علَيَّ مِنْكِ وسَانا
قالَتْ لَقَدْ كَذَبَ الرَّسُوْلُ أبِقَوْلِ زُوْرٍ يَرْتَجِيْ إِحْسَانا
فَقَدْتَهُ
كَذَبَ الرَّسُولُ فَسَلْ مُعَاذَةَ كانَ الحديثُ ولا تَكُنْ هكذا عَجْلانا
بل جاءَنِيْ فَقَرَأْتُهُ مُتَهَلِّلاً وَجْهِيْ وبَعْدَ تَهَلُّلٍ أَبْكَانا
هذا وذَنْبٌ قَبْلَ ذاكَ سَلَّى الفؤادَ ومِثْلُهُ سَلاّنا
جَنَيْتَهُ
صَرَّحْتَ فيهِ وما كَتَمْتَ بالقولِ إنكَ لا تُرِيْدُ لِقَانا
مُجاهِراً

وفي قوله في الثريا بعد رحيلها مع زوجها سُهَيل بن عبد العزيز :

كَتَبْتُ إليكِ مِنْ كِتَابَ مُوَلَّهٍ كَمِدِ
بَلَدِيْ
كَئِيْبٍ واكِفِ العَيْنَيْـ نِ بالحسَرَاتِ مُنْفَرِدِ
يُؤَرِّقُهُ لَهِيْبُ الشَّوْ قِ بَيْنَ السَّحْرِ والكَبِدِ
فَيُمْسِكُ قلبَهُ بِيَدٍ ويَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ

إنه يكاد يتكلم بكلام الناس العاديين في محاوراتهم وتعابيرهم في مثل هذه الأحوال ، ولعل هذا سِرٌ من أسرار سيرورة شعر عمر وشعبيته على نطاق واسع في عصره وبعد عصره ، كما قد يكون أيضاً سِرَّ إعجاب الناس العاديين به ، وهذا يذكرنا بلغة شاعرنا المعاصر (نزار قباني) في أشعاره كلها ، لأنه كان يكاد يتبع مذهبه الشعري ذاته .

٦– أتباع عمر في مدرسة الغزل الحضري في الحجاز :

لما أخذ عمر بالشهرة والانتشار قلَّده في مذهبه الغزلي جملة من أبناء الحواضر الحجازية الذين ينتمون إلى الأسر الشريفة والطبقة العليا من المجتمع . ولكن هؤلاء لم يقتصروا في قصائدهم على الغزل وحده وإنما خاضوا في أنواع شعرية أخرى ، إلا أن الغزل كان غالباً عليهم جملة ، ومن أبرز هؤلاء : **العَرْجِي الأموي ، والأحوص الأنصاري ، وعبيد الله بن قيس الرقيات العامري من قريش** (في المرحلة الأولى من حياته حتى وقعة الْحَرَّة بالمدينة سنة ٦٣هـ) . غير أن هؤلاء لم تكن لهم المكانة المبرِّزة كمكانة عمر في شعر الغزل وفي الانتشار بين الناس وفي السيرة التي سارها عمر في حياته ، وذلك لأن كلاً منهم كانت له ظروفه المختلفة التي أحاطت بمولده ونشأته الأولى وما كان من ظروف استجدّت في حياة كل منهم فخالفتها عن حيوات الآخرين . كما أن لكل منهم شخصيته المستقلة التي جعلت لكل واحد منهم سبيلاً مختلفة قليلاً أو كثيراً عن سبيل الآخرين .

تيار شعر الموالي في العصر الأموي

إسماعيل بن يَسَار النِّسَائيّ (م١٣٢هـ)

(مولى بني تَيْمِ بْنِ مُرَّة من قريش)

(وهو من شعراء الشعوبية داخل التيار)

تمهيد :

كان من نتائج الفتوح الإسلامية في بلدان الشرق والغرب دخولُ أعداد من أهالي هذه البلدان ، بنتيجة معارك السيف ، على صورة (**رقيق**) من الولدان والبالغين من الجنسين ، وكانوا ينتمون إلى الفرس والروم واليونان والبربر والأحباش والزنج والأندلس ومختلف الشعوب الأخرى . وكان هذا الرقيق يُوَزَّع على المجاهدين مع الغنائم إثر كل معركة . وكان بعضهم يبيع ما يملك من الرقيق لغيره ، وكان مالكو الذكور من الرقيق يستخدمونهم في الخدمة والأعمال والمهن المختلفة حسب قدراتهم ومواهبهم ، وقد أوصى النبي (ص) بحسن معاملة الرقيق ، فقد قال مرة لأبي ذر (ر) عنهم : (**إخوانكم وخَوَلُكُم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، ولو شاء جعلكم تحتَ أيديهم ، فَمَنْ كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليُلْبِسْه مما يلبَس**) ، وهذا غاية الرحمة في استخدام الرقيق ومعاملته في الإسلام . وأما الإناث من الرقيق فقد كُنَّ يُتَّخَذْنَ للخدمة في منازل مالكيهن ، وكان المالكون يختارون بعضهن للتَّسَرِّي ، أي للتمتع بهن جنسياً ، بغض النظر عن العدَد ، فإذا أنجبت إحداهن ولداً نُسِب إلى أبيه ، وسُمِّيت أمه (**أم ولد**) وحَرُم بيعها لذلك .

وقد عُدَّ هذا الرقيق (**موالي رِقٍّ**) ، وولاء الرق يكون للمالك ، ويمكن أن يتصرَّف فيه بالبيع ، ونظام الولاء قديم عند العرب ومعروف في الجاهلية ، وقد أدخل عليه الإسلام جملة من التعديلات ليتلاءم مع طبيعة الدعوة الجديدة .

وقد فتح الإسلام الباب واسعاً لحل مشكلة الرق في المجتمع الإسلامي على الأقل ، بأن حصر الحصول على الرقيق بحروب مشروعة ، ومن ثم يمكن بيعه وشراؤه . وكان العرب داخل الجزيرة يسترق بعضهم بعضاً ذكوراً وإناثاً ، إلى أن نزلت (**سورة التوبة**) سنة ٩هـ بتخيير العرب الذكور خاصة داخل جزيرتهم بين الإسلام أو القتل ، فلم يعد هنالك مجال لأخذ رقيق منهم ، ولكن بقيت النساء يؤخذن سبايا مع ذراريهن ويفرض عليهم الرق . وقد عرض الخليفة عمر بن الخطاب (ر) أمر استرقاق العربي ، ذكراً كان أم أنثى ، على الصحابة ، قائلاً لهم : (**إنه لَيَقْبُحُ بالعرب أن يملك بعضُهم بعضاً وقد وسَّع الله وفَتَح الأعاجم**) ، ثم اتُّخذ بعد المشورة قرار تحريم استرقاق العربي عامة بقوله : (**إنه لا سِباءَ على عربي**) وفي رواية أخرى : (**إنه لا سِباء في الإسلام ولا رِقَّ على عربيّ في الإسلام**) ، فحرَّم بذلك استرقاق العربي ذكراً أو أنثى على وجه الإطلاق ، فكان أول محرِّر للعرب من الرق . ثم إن الخليفة علياً (ر) وسَّع أمر تحريم الاسترقاق ليشمل المسلمين جميعاً ، فأصبح لا يجوز استرقاق أي ذكر أو أنثى إن كانا على الإسلام في الأصل ، ولأي سبب من الأسباب ، وذلك حين قال : (**ليس على الموحِّدين سَبْيٌ**) ، فكان أول محرِّر للمسلمين من الرِّق على الإطلاق . وهكذا بقي الرق مفروضاً على الأعاجم وحدهم ، ومصطلح (**الأعاجم**) هنا يعني كل من لا ينتسب إلى العرب انتساب عَصَبَةٍ أو دمٍ .

وفتح الإسلام الباب واسعاً لحل مشكلة الرق – كما ذكرنا – تدريجياً ، حتَّى يضمحلّ ويزول تلقائياً في المجتمع الإسلامي على الأقل ، فكان هنالك طرق وأسباب كثيرة للعِتْق ، لا مجال لحصرها هنا ، بل إنه أعطى الحقَّ للرقيق أن يُحرِّر نفسه ، إن شاء ، بدفع ثمنه لمالكه عن طريق ما يُعرَف بالمكاتبة .

وإذا حرَّر المالك أحد الرقيق الذي يملكه انتقل إلى لون آخر من الولاء هو (**ولاء العِتْق**) ، وهذا النوع لا يجوز بيعه ولا انتقاله عمَّنْ أعتقه ، لأن الفضل يبقى فيه للمُعْتِق . وجعل الإسلام الرقيق الْمُعْتَق بمنْزِلة العرب عن طريق التبعية الولائية

بحكم هذا الْعِتْق ، فقد قال النبي (ص) : (**مولى القوم منهم**) ، و(**الولاء لُحْمَةٌ** [أي رابطةٌ] **كلُحْمَة النَّسَب**) ، وفتح الإسلام بذلك الباب واسعاً لتعريب رقيقهم الذي أعتقوه من الأمم الأعجمية المختلفة ، وعُدَّ هؤلاء عرباً بحكم الولاء للعرب ، وعبَّر الجاحظ عن هذه الحقيقة فقال : (**وقد جعل الله المولى – بعد أن كان عجمياً – عربياً بولائه**) .

وكان هنالك نوع ثالث من الولاء للعرب هو (**ولاء العَقْد**) ، أي (**التعاقد**) بين رجل أعجمي حُرّ وآخر عربي ، حتى يعيش هذا المولى الأعجمي في ظلال العربي وحمايته ، ويبقى حراً بعد عَقْد هذا الولاء . وكان ذلك سبيلاً إلى تعريب هذا النوع من الموالي كذلك .

وكان الجيل الأول من الرقيق نوعين : الأول البالغون الذين كانوا قد تكونوا لغوياً على ما تلقنوه من لغاتهم الأصلية ، وتفاوتت مواهبهم في اكتساب العربية ، إلا أنهم كانوا عاجزين عن التعبير الدقيق عن مكنونات نفوسهم . والثاني الذراري دون سن البلوغ ، وهؤلاء كانوا أسرع إلى اكتساب العربية وإجادة الكلام بها . إلا أن المشاركة في إنتاج الأدب العربي المتقن شعراً ونثراً كان على يد الجيل الثاني من هؤلاء الموالي من حيث المبدأ ، إلا أنه كان أوضح بكثير على يد الجيل الثالث الذي ولد في المجتمع العربي وصار يقيم التعبير بالعربية كالعرب الأقحاح تماماً ، حتى إن كثيرين منهم أصبحوا فقهاء ضليعين في الإسلام ، وشعراء وناثرين .

وممن كان ينتمي إلى الجيل الثاني – فيما يظهر – والذي انتقل في المجتمع العربي من (**ولاء الرق**) إلى (**ولاء العِتْق**) شاعرنا الراهن (**إسماعيل بن يَسَار**) الذي أجاد العربية كأهلها ، فأهَّله ذلك – مع وجود الموهبة – إلى انطلاق لسانه بقول الشعر الذي لا يقل قيمة وتطوُّراً عن قيمة الشعر الذي أنتجته الأجيال الجديدة من شعراء العرب في ظل الإسلام :

(١)

حياته

١– اسمه ونسبه :

هو (**إسماعيل بن يَسَار**) ، ويبدو لنا أن أباه (**يساراً**) هذا كان رأس (**آل يسار**) الذين اشتهر منهم شاعر آخر هو (**موسى بن يسار**) المشهور في العصر الأموي باسم (**موسى شَهَوَات**) ، وكان (**يسار**) من سبي فارس خلال حروب الفتح الإسلامي فيها ، أي أنه كان من الأطفال الذين لم يبلغوا سن الرُّشْد بعد ، وقد ضُرِب عليه الرِّق ، وسماه مالكه (**يَسَاراً**) كما هي عادة العرب في تسمية رقيقهم بأسماء فيها تفاؤل ، ووقع هذا الطفل – لحسن حظه فيما يبدو – في نصيب رجل مجاهد من بني تيم بن مرة من قريش ، وهو البطن الذي ينتمي إليه أبو بكر الصديق (ر) ، أو ربما ابتاعه ذلك الرجل من أحد المجاهدين . فتربَّى ونشأ في بيت مولاه بالمدينة المنورة عاصمة نور الإسلام المشع على العالم . ويبدو أنه أُعْتِق في زمن لاحق لا ندري متى بالضبط ، فصار هو وأولاده (**مواليَ عِتْقٍ**) لبني تيم .

٢– كنيته ولقبه :

كان إسماعيل يُكنَّى (**أبا فائِدٍ**) ، ويُلَقَّب (**النِّسائِيّ**) ، وقد ذكر بعض القدماء أنه كان لقباً لأبيه ورثه عنه ، لأنه كان – كما ذكر أبو الفرج في (أغانيه) – (**يصنع طعام العرس ويبيعه .. فَمَنْ طَرَقَه وجده عنده مُعَدَّاً**) فلقب (**النسائي**) على الوصف ، أو (**يَسَارَ النِّساء**) على الإضافة ، لأن إعداد طعام الأعراس إنما تختص به النساء عادة أو لأن أكثر مَنْ يتعامل مع يسار في ذلك النساء . وذهب بعضهم إلى أنه لقبٌ لإسماعيل نفسه ، لأنه كان (**يبيع النَّجْدَ والفُرُشَ التي تُتَّخَذ للعرائس**) ، والنَّجْد يعني : مَتَاع البيت من البُسُط والوسائد والسُّدول .

٣– مولده ونشأته وأسرته :

يروي أبو الفرج أن إسماعيل (**عاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية**) ، وذكر أنه (**وفد إلى الوليد بن يزيد وقد أسَنَّ وضَعُفَ**) ، فإذا كانت وفادته سنة ١٢٦هـ ، وكان في الثمانين من عمره ، فيكون مولده سنة ٤٦هـ تقريباً ، أي في بدايات العصر الأموي . أما عن نشأته فلا بد أن تكون في المدينة موطن مواليه ، وهي قاعدة الإسلام ومثوى النبي (ص) ، وقد ترعرع فيها بين المهاجرين والأنصار وأبناء الصحابة وأحفادهم ، معاصراً لبعض الحوادث التاريخية الهامة ، ولا سيما ما كان بين ابن الزبير والأمويين من صراع دامَ نحو عشر سنين (٦٣هـ-٧٣هـ) كان فيها إسماعيل في عنفوان شبابه ، وهذا يفسّر لنا انقطاعه إلى آل الزبير ، لأن موهبته الشعرية تفتحت وازدهرت في ظل حكم ابن الزبير ، فلم يكن له من بُدّ إلا أن يتَّصِل به وبآله يتمدَّحُهم وينال جوائزهم ، ولكن أشعاره في الزبيريين أُسْقِطَتْ كلُّها ، فلم يصل إلينا منها – للأسف الشديد – بيتٌ واحدٌ يشِي بحقيقة مدحه للزبيريين أو طريقته في هذا المدح . ولكن وصلت بعض مراثيه لأفراد من آل الزبير .

ولا شك في أن بيئة كبيئة الحجاز وموطناً كالمدينة كان لهما كبير أثر في نفس إسماعيل من جهة ، وفي لغته وشاعريته من جهة ثانية ، لأنه نشأ في وسَطٍ يعتدّ بالإسلام والعربية وبالمعارف الدينية والأدبية وبعض المعارف الأخرى . وكان ولاؤه في بني تيم بن مرّة – وهم قُرَشِيون – أخطر عنصر في حياته ، لأنه وفَّر له جوَّ المخالطة بأرقى أوساط المجتمع الإسلامي وأشرفهم مكانة ، وكلهم من العرب الخلَّص ، أعني أبناء الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وقد شهدت هذه البيئة ازدهار فنون الأدب والشعر ، والموسيقى والغناء وما أشبه ذلك ، ولعل صدى كل هذا يبدو لنا ملموساً في غزل إسماعيل وفي رقّة شعره وعذوبة جرسه ولطف معانيه .

كان لإسماعيل أخوان هما (**موسى ومحمد**) ، وكان متزوجاً وله ابن يدعى (**إبراهيم**) . ولا نملك أخباراً عن حياة إسماعيل الخاصة داخل بيته ومع أهله ، لأن كل ما وصل إلينا من أخباره كان يصف صِلاتِه بمعاصريه .

٤– تكوينه الثقافي :

لا شك في أن إسماعيل كان قد اكتسب المعارف التي كانت سائدة في عصره وبيئته ، حيث ازدهرت حركة العلوم الإسلامية من قرآن وتفسير وحديث وفقه ، وشهد الشعر ازدهاراً وتطوراً على أيدي شعراء الغزل من المدرستين الحضرية والعذرية . زد على ذلك تعرُّفَ الشاعر على إنتاج معاصريه من الشعراء وعلى إنتاج من سبقوه من القدماء ، وكان تاريخ الأحداث من عهد البعثة النبوية إلى حدود الوعي عند إسماعيل لا يزال غضاً يعيشه الناس في ذكرياتهم الكثيرة ، ثم إن تاريخ الأحداث منذ وعي إسماعيل لما حوله كان يُدَّخَر في ذهنه أولاً بأوَّل حتى نهاية العصر الأموي ، وهذا يعني أن ثقافة إسماعيل التاريخية كانت ثقافة واسعة . وتلي هذه المعارفَ معارفُ عامة أخرى تتعلَّق بأيام العرب وأنسابها وما أشبه ذلك أو قاربه . وكانت هذه المعارف جميعاً تُغَذِّي ، بالتأكيد ، موهبته الشعرية ، وتُمِدُّها بالمعلومات التي تخدم المعاني التي كان يحشُدها في أشعاره .

٦– صلاته بشخصيات عصره :

أ) صلته بآل الزبير : تفتحت موهبة إسماعيل الشعرية كما ذكرنا في ظل خلافة ابن الزبير التي بدأت فعلياً سنة ٦٤هـ بوفاة يزيد بن معاوية وفك جيشه الحصار عن مكة وفيها ابن الزبير ، وكان في حدود الثامنة عشرة أو العشرين من عمره ، ولم يكن من الممكن أن ترحل هذه الموهبة الغضَّة المتفتحة وراء حدود خلافة ابن الزبير : فقد استعاد الأمويون سنة ٦٥هـ مصر والشام ، وأصبح الصراع سنة ٦٦هـ على أشده في العراق بين مصعب بن الزبير والمختار الثقفي وعبد الملك بن مروان ، فلم يكن ممكنا أن يتَّصِل ببيئات مصر والشام والعراق . فانقطع إسماعيل لآل الزبير يمدحهم كما رأينا

، ثم إن سلطان ابن الزبير تقوَّض سنة ٧٣هـ ، فأصبح قاعاً صَفْصَفاً ، ولكن إسماعيل ظل على صلة وثيقة بمن بقي من آل الزبير ، فكان كالمنقطع إلى عروة بن الزبير . وظل شاعرنا ملازماً المدينة لا يَبْرَحها إلى أيِّ جهة ، مقيماً بجوار مواليه وأصحابه وخلانه ، وقد نَعِم الحجاز بفترة طويلة من الهدوء والسكينة بعد ثورة ابن الزبير ، وازدهرت الميول (الأرستقراطية) المترفة ، فازدهر الغناء والغزل وجرى الناس وراء الملاهي والملذات جرياً لم يكن معروفاً من قبل ، وقد أقبلت عليهم الدنيا بنعيمها ، وأقبلوا هم عليها بظمأ شديد ، من غير أن يقطعوا حبالهم مع اليوم الموعود ، ونزعت النفوس مطامِحَها السياسية وأحلامَها في جعل الحجاز قاعدة للخلافة بعد تلك التجربة المريرة التي خاضوها مع ابن الزبير .

ب) وفاداته على خلفاء بني أمية وأمرائهم : بعد مدة طويلة من استقرار الأمر لعبد الملك بن مروان ، رحل إليه إسماعيل بالشام ، بصحبة عروة بن الزبير ، ودخلا عليه في دمشق ، فأحسن استقبالهما ، على عَتَبٍ يسير منه على الشاعر وعروة لتأخرهما في الوفادة عليه ، ومع سُرورٍ بهما ، فمدحه الشاعر بقصيدة دالية ذكر في آخرها قوله (من الطويل) :

وَلَمَّا وَلِيْتَ الْمُلْكَ ضَارَبْتَ دُوْنَهُ وَأَسْنَدْتَهُ لاَ تَأْتَلِيْ خَيْرَ مُسْنَدِ
جَعَلْتَ هِشَامَاً وَالْوَلِيْدَ ذَخِيْرَةً وَلِيَّيْنِ لِلْعَهْدِ الْوَثِيْقِ الْمُؤَكَّدِ
وَأَمْضَيْتَ عَزْمَاً فِيْ سُلَيْمَانَ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ مِثْلَكَ رَاشِدَاً يَرْشُدِ

ونستنبط من إشارته إلى أولياء عهد عبد الملك من بنيه أن الزيارة تمت بين وفاة أخيه عبد العزيز سنة ٨٥هـ ، وكان ولياً لعهده ، ووفاة عبد الملك نفسه سنة ٨٦هـ . ويبدو أن تلك الوفادة كانت بصحبة عروة بن الزبير بعد أن صفت النفوس ، وكان الشاعر يتردَّد من بعد عبد الملك مع عروة أيضاً على ابنه الوليد ويمدحه على الأقل بقصيدة واحدة ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يصل إلينا . ثم نجده ينقطع عن الوفادة على

سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ، وهذا على الأقل ظاهر ما نستنبطه من سكوت المصادر عن أي إشارة إلى زيارتهم ، إلا أنه وفَد على هشام ، ثم وفَد بعد هشام على الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ ، وكان قد أسَنَّ وضعف كما مرَّ بنا ، ومدحه ومدح أخاه الغمر بن يزيد ، بل إن الوليد غُنِّي بشيء من شعر إسماعيل (في مغامرة له عند كَلْثَم) ، فسأل عن صاحب الشعر فقيل له : (**رجلٌ من أهل الحجاز يقال له إسماعيل بن يسار النِّسائي ، فكتب في إشخاصه إليه**) ، فحضر ، فأمره أن ينشد له القصيدة كاملة ، فأنشده إياها (**فطرب الوليد .. وأمر لإسماعيل بكسوة وجائزة سَنِيَّةٍ ، وسَرَّحَه إلى المدينة**) .

وهكذا كان إسماعيل أحد شعراء الموالي المجيدين الذين اتصلوا بالخلفاء والأمراء الأمويين بدمشق ، وأهَّله لذلك ما كان يتمتَّع به من موهبة شعرية من جهة ، ومن صلة بعروة بن الزبير من جهة ثانية ، ولأنه كان من موالي قريش من جهة ثالثة .

ج) صلته برجال الدولة والمجتمع : يبدو أن إسماعيل لم يكن على صلة بأيٍّ من ولاة الدولة الأموية مِمَّن كانوا ، على أقل تقدير ، ولاةً للمدينة ومكة ، وقد يكون على صلة بهم إلا أن أشعاره فيهم ضاعت . وربما لم يعرهم أي اهتمام ، أو أنهم هم الذين كانوا يصدُّونه لما عرف عنه من نزعة شعوبية ، لأن هؤلاء الولاة ربما كانوا أكثر تشدُّداً على الشعوبية من الخلفاء ، لكونهم على اتصال مباشر بجماهير الناس ، وعليهم أن يفرضوا النظام والطاعة . وأما رجال المجتمع فيُرْوَى أنه كان لإسماعيل صديق يدعى (عبد الله بن أَنْس) اتَّصَل ببني أمية بدمشق وأصاب منهم خيراً كثيراً ، فرحل إليه مادحاً فأنكره ، فهجاه بشعر ساخر . ولا شك أن إسماعيل كان يلتقي في حياته اليومية بالناس ويجتمع بهم في مجالسهم ويتحادث معهم ، ذلك لأنه كان حسَن المعشر لطيف الحديث .

٧– شعوبيته :

ذكر أبو الفرج أن إسماعيل كان (**مُبْتلَىً بالعصبية للعجم والفخر بهم ، فكان لا يزال مضروباً محروماً مطروداً**) ، كما قال عنه أيضاً إنه كان (**شعوبياً شديد التعصُّب للعجم ، وله شعر كثير يفخر فيه بالأعاجم**) ، وكان إسماعيل أشد أخوته انغماساً في هذا التيار ، ويبدو أنهم ورثوا هذه النَّزعة من أبيهم (يسار) ، وتكشف لنا الحادثة التالية هذه الحقيقة : وقف إسماعيل بباب الغمر بن يزيد بالشام واستأذن للدخول ، فحُجِب عنه ساعة ، فلما دخل جعل يبكي بحرارة ، فلما سأله الغمر عما به قال : (**وكيف لا أبكي وأنا على مروانِيَّتِي ومروانية أبي أُحْجَبُ عنكَ ؟!**) ، فراح الغمر يسترضيه وهو يزيد في البكاء ، فما سكت حتى وصله الغمر بجائزة كبيرة ، فلما خرج من عنده سأله بعضهم عن هذه المروانية فقال : (**بغضُنا إياهم ، امرأتُه طالِقٌ إن لم يكن يلعَن مروانَ وآلَه كلَّ يومٍ مكانَ التسبيح ، وإن لم يكن أبوه حضَره الموتُ فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : لعَن اللهُ مروانَ ، تقرُّباً بذلك إلى الله تعالى ، وإبدالاً له من التوحيد ، وإقامةً له مقامَه**) . وغرس إسماعيل شعوبيته هذه في ابنه إبراهيم ، وهو شاعر ، روى له أبو الفرج في (أغانيه) بيتين من قصيدة وصفها بقوله : (**وهي طويلة يفتخر فيها بالعجم كرهتُ الإطالة بذكرها**) ، ولم تصل إلينا هذه القصيدة .

ويتَّضِح لنا من هذا أن (آل يَسَار) عموماً كانوا يحملون هذه النَّزعة ، لأنهم كانوا يحملون في أنفسهم ذكرياتٍ حَيّةً عن ماضي قومهم من الفرس ، بما كانوا عليه من دولة وسلطان وعظمة ومجد ، ولم يكونوا يخشون التعبير عن فخرهم بذلك الماضي بلا خوف ولا خشية مهما كانت النتائج ، فكانوا أجرأ من يمثل تيار الشعوبية في العصر الأموي . ولقد كانوا يجعلون هذا الفخر وسيلة إلى الطعن في ماضي العرب إذا قورن بماضي قومهم . وتروي المصادر لإسماعيل في ذلك قصيدتين يقول في الأولى (من الخفيف) :

إِنَّمَا سُمِّيَ الْفَوَارِسُ بِالْفُرْ سِ مُضَاهَاةَ رِفْعَةِ الأَنْسَابِ

ويطعن في العرب من خلال عادة وأد البنات في الجاهلية عند بعضهم فيقول :

إِذْ نُرَبِّيْ بَنَاتِنَا وَتَدُسُّوْ نَ سَفَاهاً بَنَاتِكُمْ فِي التُّرَابِ

وقد أنشدها في مجلس كان فيه (**أشعب**) الطماع ، فعلّق عليه قولاً نقله أبو الفرج نصه : (**فقال له أشعب : صدقتَ – والله – يا أبا فائد ! أراد القوم بناتهم لغير ما أردتموهن له ! قال : وما ذاك ؟ قال : دَفَن القوم بناتهم خوفاً من العار ، وربيتموهن لتنكِحوهُن** [يعني على عادة المجوس من الزواج بالمحارم] . **فضحك القومُ حتَّى استغربوا** [أي سالت دموعهم من كثرة الضحك] . **وخجِل إسماعيل**) . وأنشد القصيدة الثانية بحضرة هشام بن عبد الملك في قصره بالرُّصافة ، ومما قال (من البسيط) :

مَنْ مِثْلُ كِسْرَى وَسَابُورِ الْجُنُودِ وَالْهُرْمُزَانِ لِفَخْرٍ أَوْ لِتَعْظِيْمِ مَعَاً

أُسْدُ الْكَتَائِبِ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ وَهُمْ أَذَلُّوا مُلُوكَ التُّرْكِ وَالرُّومِ زَحَفُوا

هُنَاك إِنْ تَسْأَلِيْ تُنْبَيْ بِأَنَّ لَنَا جُرْثُوْمَةً قَهَرَتْ عِزَّ الْجَرَاثِيْمِ

فلما لاحظ هشام فخره بملوك الفرس وتغلبهم على الترك والروم وما أشبه ذلك غضب عليه وقال : (**أَعلَيَّ تَفْخَر وإيايَ تُنْشِد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاجَ قومِك ؟!**) ، ثم أمر بإلقائه في بحيرة ماء حتى كادت نفسه تفيظ ، ونفاه إلى الحجاز من وقته ، ولم يرجع إليه .

وقد ذهب د. وهب رومية في تفسير قول إسماعيل في المقدمة الغزلية التي مهد بها لمدح عبد الملك بن مروان في اللقاء الأول بينهما (من الطويل) :

أَلاَ يَا لَقَوْمِيْ لِلرُّقَادِ الْمُسَهَّدِ وَلِلْمَاءِ مَمْنُوعَاً مِنَ الْحَائِمِ الصَّدِي

وَلِلْحَالِ بَعْدَ الْحَالِ يَرْكَبُهَا الْفَتَى وَلِلْحُبِّ بعْدَ السَّلْوَةِ الْمُتَمَرِّدِ
وَلِلْمَرْءِ يُلْحَى فِي التَّصَابِيْ صَبَا بِالْغَوَانِيْ كُلُّ قَرْمٍ مُمَجَّدِ
وَقَبْلَهُ
وَكَيْفَ تَنَاسِي الْقَلْبِ سَلْمَى كَجَمْرِ غَضَاً بَيْنَ الشَّرَاسِيْفِ
وَحُبُّهَا مُوْقَدِ

إلى أن الشاعر إنما (**يبكي حلُماً كبيراً تبدَّد بين يديه فجزِع لذلك ، وراح يجأر بالبكاء والشكوى**) ، ويتساءل المرء : وما هذا الحلُم الذي بكاه إسماعيل هنا ؟ يجيب د. رومية بأنه الحلم بفوز الزبيريين بالخلافة ، أما البكاء المرُّ في هذه الأبيات فإنما هو (**من آثار إخفاق الزبيريين وسقوطهم**) ، وهو (**بكاءٌ عليهم وجزَعٌ من تحوُّل الأمر إلى خصومهم الأمويين واستتبابه فيهم**) . غير أننا نرى أن نُسقِط هذا البكاء والتحسُّر إسقاطاً آخر ، ربما كانت له من الوقائع حجة تدعمه وتثبته ، أعني أن إسماعيل بشعوبيته المشهورة عنه لم يكن ليبكي ، بأي شكل من الأشكال ، على سلطان خليفة عربي تحطم ، ليُسَرّ بآخر يقوم ، لأن المحصِّلة عنده ، في نهاية المطاف ، واحدة هي : بقاء سلطان العرب قوياً عزيزاً ، وهو لا يرغب في هذا السلطان أصلاً ، وإنما هو مداهن منافق يُظْهِر بحضرة الزبيريين غير ما يُبْطِن ، ويبدي للأمويين تعصباً لا يُخالِط قلبه ولا ضميره ، لأنه يلعنهم في سِرِّه : فما معنى بكاء الشاعر على الزبيريين إذن ؟ إننا نستبعد تماماً أن يكون عناهم ، لأنهم في الأصل ليسوا قومه ، أي مواليه ، كما صرَّح في البيت الأول ، ولأن موقِف (**الموالي**) في الحجاز – في ظل خلافة ابن الزبير نفسه – عبَّر عنه الشاعر (**أبو حُرَّة**) ، وهو من الموالي ، ولخَّصَه بأنه موقف عدم الاكتراث بما يجري من صراع بين العرب زبيريين وأمويين ، إذ يقول (من البسيط) :

أَبْلِغْ أُمَيَّةَ عَنِّيْ إِنْ عَرَضْتَ لَهَا وَابْنَ الزُّبَيْرِ وَأَبْلِغْ ذَلِكَ الْعَرَبَا
أَنَّ الْمَوَالِيَ أَضْحَتْ وَهْيَ عَاتِبَةٌ عَلَى الْخَلِيْفَةِ تَشْكُو الْجُوعَ

وَالْحَرَبَا

مَاذَا عَلَيْنَا وَمَاذَا كَانَ يَرْزَؤُنَا أَيُّ الْمُلُوكِ عَلَى مَا حَوْلَنَا غَلَبَا

ونرى أن إسماعيل كان يستنهض قومه من الفرس ، ويتحسَّر على طول خضوعهم وخنوعهم للعرب ، مكنياً عن ذلك بهذا (**الرقاد**) الذي طال ، وهو يتحسَّر على (**الماء**) الذي كنَّى به عن السلطة أو عن أهداف الشعوبية الكبرى ، ويكني بـ (**ظمئه إليه**) عن الطموح إلى هذه السلطة واستعادتها لقومه ، مع أن هذا (الماء) ممنوع أن يصل إليه العطشان الذي يحوم حوله ، نظراً لما عليه من حراسة مشدَّدة تدفع عنه طالبيه . ولعله في الشطر الأول من البيت الثاني يتحسَّر على عدم ركوب قومه المخاطر لاستعادتها ، كما يكني بـ (**الحب المتمرد**) بعد غيابه ونسيانه عن العودة إلى طلب هذه السلطة بعد أن مر زمن نُسِي فيه الأمر . وفي البيت الثالث يبيِّن أن الناس قد يلومونه على طلب السلطة ، وكنى عن هذا الطلب بكلمة (**التصابي**) ، وهو تكلف الشيخ الظهور بمظهر الشباب أو طلب هذا المظهر . ثم إنه يسوِّغ في هذا البيت نفسه طلبه للسلطة أن كل الطموحين طلبوها قبله ، مكنياً بـ (**طلب الغواني**) عن طلبها . ثم يعزِّز في البيت الرابع هذه التأويل بالكناية عن السلطة بـ (سلمى وحبها) ، ويقول كيف ينساها القلب ؟ ويشبِّه ولعه الدائم والنشِط في صدره بعودة سلطان قومه بجمرة مُحْرِقة من نوع من الحطب جَزْلٍ هو حطَب شجرة الغضا وهي تشتعل بين ضلوعه ، مما يعني أن تذكره لسلطان قومه دائمٌ وحيٌّ ونشطٌ لا ينساه .

فإذن ، نحن نقف أمام مجموعة باهرة من الرموز الخفية ، التي انطلت – في ظاهرها – على الخليفة عبد الملك وعلى غيره من معاصريه ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل كان رجلاً داهية ماكراً إن قال هذه المقدمة الشعرية لقصيدته عن وعي تام لما يقول ، ويكشف لنا – إن هو قالها بلا وعي ولا إدراك لما تضمه من هذه الرموز – عما كان يعتمل في قلبه وعقله وضميره من مشاعر وآمال وطموحات بأن يعود لقومه ماضيهم المجيد ودولتهم العظيمة القوية : أوَلم يسألْه عبد الملك قبل إنشاده هذا الشعر قائلاً : (

آلآن يا بن يَسَار ؟!.. إنما أنتَ امْرُؤٌ زبيريٌّ ، فبأيِّ لِسَانٍ تُنْشِد ؟!) ، فقال : (يا أمير المؤمنين ، أنا أصغر شأناً من ذلك ، وقد صَفَحْتَ عمَّنْ هو أعظمُ جُرْماً وأكثرُ غَنَاءً لأعدائك مني ، وإنما أنا شاعرٌ مُضْحِكٌ !) ، يريد بذلك أن يتنصَّل مما نُسِب إليه من هوَىً زبيريٍّ ، وأن يدفع عن نفسه عداءَه للأمويين ، وكل هذا – كما نرَى – نفاق ظاهر بلا ريب .

٨– وفاته :

ذكر أبو الفرج أن إسماعيل بن يسار (**عاش عمراً طويلاً إلى أن أدرك آخر سلطان بني أمية ، ولم يدرك الدولة العباسية**) ، وهذا يعني أنه قد توفي في بعد سنة ١٢٦هـ التي زار فيها الوليد بن يزيد في خلافته ، وكان في حدود الثمانين ، وهو يعني أيضاً أنه عاد إلى المدينة ولبث فيها بضع سنين ومات قبيل قيام العباسيين بالخلافة بقليل ، ولذا نرجح أن يكون توفي في مطلع سنة ١٣٢هـ ، مع بداية تمزق مُلْك الأمويين ووَشْكِ سقوط دولتهم .

(٢)

شخصية إسماعيل بن يَسَار

تميَّزت شخصية إسماعيل حسب المعلومات التي وصلت إلينا بجملة من الصفات التي يمكن استنباطها من أخباره وأشعاره من أبرزها أنه :

١– مداهِنٌ ماكِر :

يبدو أن صفتي المداهنة والمكر كانتا تشكِّلان شطراً من شخصية إسماعيل ، وكانتا تتحكَّمان في سلوكه ومواقفه ، وتُكسِبان مواقفه أثواباً جميلة فتّانة للناظرين ، لا تلبث أن تتلوَّن بألوان أخرى ملائمة لمواقف أخرى في حياته . وتشهد على ذلك وقائع وأخبار من سيرة حياته نفسها . ولعلّ شعوبيته المعهودة عنه غرست في نفسه هاتين الصفتين غرساً قوياً ، لأن مَنْ حَقَد على قومٍ ، وهو بينهم ، لا بد له من أن يداريهم ويصانعهم ليحفظ حداً أدنى من العلاقات الطيِّبة معهم تكون عوناً له على

الحياة ، فهو يظل حائراً ما بين حقيقة نزعته ومتطلبات واقعه ، لا يستطيع أن يجهر بحقده الدفين على العرب ، فيضطر إلى أن يواريه ويورِّي عنه ويكنّي ، ومهما تكن حُجُب نفسِه كثيفة فإنها تشِفّ عما في دخيلتها وتكشِف عن مكنونها الأصلي الذي لا تصنُّع فيه ولا تكلُّف ، وما تصريحه بالفخر بالعجم إلا كشْفٌ مباشِر لهذا المكنون ، ولكنه يعجز عن تحمُّل أعباء هذا التصريح دائماً ، ولا سيما في بعض الأوقات التي تشهد تحولاتٍ كبيرة لا تسمح له بأن يعبِّر عن رأيه من غير أن ينال عقاباً شديداً أو رفيقاً ، بشكل أو بآخر . ومن ذلك هذا التحول الكبير في الحجاز من سلطان ابن الزبير إلى سلطان بني أمية : فهو مثلاً انقطع في خلافة ابن الزبير إلى آل الزبير ، وهو يظن أن مُلْكهم دائم ، حتى إذا انتهى هذا الملك أخيراً لم يجرؤ على السعي مباشرة إلى الأمويين بالشام لمدحهم ، ولم يعمِد إلى قطع علاقاته فوراً بمن بقي من آل الزبير وأبرزهم عروة بن الزبير نفسه ، لأنه كان لا يزال ينال منهم عطاياهم ، وهي مضمونه له ، في حين أنه إذا اتَّصَل بالأمويين فهو غير ضامن لجوائزهم من جهة ، وهو يخشى ، من جهة ثانية ، أن يقطع عنه هؤلاء الزبيريون الذين يعاشرهم بالمدينة جوائزهم ، ثم إنه لم يكن متعوِّداً على مغادرة المدينة ، وبقي على هذه الحال حتَّى رحل عروة بن الزبير نفسُه إلى عبد الملك بن مروان بالشام أواخر سنة ٨٥هـ وأوائل سنة ٨٦هـ ، فلم يعد أمامه أي مانع يحول بينه وبين السعي إلى هؤلاء الأمويين ، ولاسيما أن عروة قد ألحّ عليه بأن يصحبه في هذه الرحلة الأولى بعد اثنتي عشرة سنة من مقتل أخيه على يد جيش الأمويين ، إذ لم يجد بداً من مهادنة عبد الملك والإقرار له بالملك ، ما دام الصراع بينه وبين أخيه كان صراعاً شريفاً قام رجلاً لرجل . ولما دخل إسماعيل على عبد الملك عاتبه بما مر بنا من كلام ، فأجابه بعذره ، ويبدو لنا من حوارهما المقتضب أن كلاً منهما كان يُدرِك عُذر الآخر وحقيقة موقفه ، وقد لَمَّح إسماعيل للخليفة إلى أنه صفَح عن عروة وهو أشدّ خطراً عليه منه ، أما هو فشاعر لا أهمية له ، فكان هذا

الرد كافياً لشفاء نفس عبد الملك مما وجد به على الشاعر ، ولا سيما أنه تنصَّل أو كاد يتنصَّل من هواه الزبيري .

ولا يقِف إسماعيل هذا الموقفَ المداهِن وحده ، وإنما يثبِتُ نفاقَه في شعره :

فأما المطلع الشعري الذي مهَّد به لمديح الخليفة فقد شحنه برموز شعوبية وكنَّى عن حقيقة مشاعره التي يُحسّ بها في نفسه بقالَبٍ ظاهري لا شِيَةَ فيه ولا غُبار عليه ، كما مر بنا ، ثم يؤكِّد لنا هذا النفاقَ قولُه في المدح (من الطويل) :

مَلَكْتَ فَزِدْتَ الناسَ مَا لَمْ إِمَامٌ مِنَ الْمَعْرُوْفِ غَيْرِ الْمُصَرَّدِ يَزِدْهُمُ

وَقُمْتَ فَلَمْ تَنْقُضْ قَضَاءَ وَلَكِنْ بِمَا سَارُوا مِنَ الْفِعْلِ خَلِيْفَةٍ تَقْتَدِي

وَلَمَّا وَلِيْتَ الْمُلْكَ ضَارَبْتَ دُوْنَهُ وَأَسْنَدْتَهُ لاَ تَأْتَلِيْ خَيْرَ مُسْنَدِ

فهو في البيت الأول كأنما يُلَمِّحُ إلى بُخْلِ ابن الزبير وانقِباض يده عن الناس وشُحِّه في الجوائز والعَطايا ، وهذا تعريض واضح به . ثم يذكر حروبه ضد ابن الزبير وغيره حتى استعاد ملك بني أمية واستقامت له الأمور : فهل تريد جحوداً وخيانة للعهد أكبر من هذا الجحود وتلك الخيانة في هذه المعاني لمن كان قد انقطع إليه وإلى آله وخصَّهم بشعره عشر سنين ؟

ويؤيِّد ما ذكرنا خبره الذي مر بنا مع الغمر بن يزيد حين زعم أنه مرواني وأنه أباه من قبله كان مرواني الهوى ، فلما سأله أحدهم عن حقيقة هذه المروانية ذكر اللعن والسب والشتم لبني مروان ، لأنه يرى أنهم كانوا رمزَ سلطانِ العرب المتمكِّن والممتد في البلدان المختلفة آنذاك ، كما أنهم رمزٌ للقوة المستمرة التي قوَّضت عرش الأكاسرة ومحت دولتهم من الوجود نهائياً ، كما أنهم رمز للقوة التي تحول دون عودة سلطانهم .

٢– مُنْذِرٌ ساخِر :

ذكر أبو الفرج أن إسماعيل كان (**طيِّباً مليحاً مُنْدِراً بَطَّالاً**) ، ونظن أن صفة (الطيِّب) هنا ليست مقابلة لصفة (الخبيث) ، لأن إسماعيل كان – كما مر بنا – ذا مكر وخُبْث ، ولكن صفة (الطيِّب) في هذا الموضع تعني ، على الأغلب ، أنه (حَسَنُ المعشر) ، لأن جوهرها يختلف عن جوهر صفة الطيِّب أو الخبيث ، وأما صفة (المليح) فتعني الحُسْن ، ويكون في السيرة والخَلْق على حد سواء ، وأما (المندِر) فهو الذي يأتي بالنوادر من الكلام ، أي ما شذّ من الأخبار المثيرة للضحك والمرح ، وأما (البطَّال) فهو الرجل كثير الهزل واللهو والمزاح . ومما يدل على الصفة الأخيرة فيه أنه حين خرج مع عروة بن الزبير إلى الشام ، جعله عروة عديله في المحمل على البعير ، فلما استوى كلٌّ منهما في هذا المحمل سأل عروة غلامه : (**انظر كيف ترى المحمل ؟ قال : أراه معتدلاً . قال إسماعيل : الله أكبر ، ما اعتدل الحق والباطل قبل الليلة قط**) ، فضحك عروة من عقد إسماعيل هذه المقارنة بينهما ، وإذا حللنا عنصر الإضحاك في هذا الكلام ، وجدنا أن الحق نقيض للباطل لا يساويه في الواقع بأي شكل من الأشكال ، وهما في صراع لا يجتمعان ولا يتماثلان في شيء من الأمر ، غير أن هذه المفارقة أصبحت فجأة موافقة ومعادلة ومساواة ، وهذا ما لا يقبله العقل ولا المنطق ، فأثارت هذه المقارنة هذا الضحك لانعدام التناسب بين طرفي هذه المعادلة ، ثم إن هنالك عنصراً آخر مثيراً للضحك وهو إقرار المرء على نفسه بما لا يُقِرّ به عادة عاقل على نفسه في الواقع ، وهذا واضح من جعل عروة يمثل (الحق) ، وجعْلِ نفسه يمثل (الباطل) ، يعني أن أحدهما حق والآخر باطل . وكانت غاية هذه المقارنة وذلك الإقرار هي إضحاك عروة ، أي أن إسماعيل عمد إلى ذلك عمداً ، مستغلاً الموقف الذي كان يراقبه .

ويؤكِّد قدرة إسماعيل على السخرية أن صديقاً له يدعى (عبد الله بن أَنْس) اتصل بالأمويين وأصاب عندهم خيراً فوفد عليه إسماعيل بمدح ، فأنكر من شدة بخله معرفته

به ، خوفاً أن يسأله شيئاً من ماله ، فقال إسماعيل يفضحه شرَّ **فضيحة** (من الوافر) :

لَعَمْرُك مَا إلَى حَسَنٍ رَحَلْنَا وَلا زُرْنَا حُسَيْنَاً يَا بْنَ أَنْسِ
وَلاَ عَبْدَاً لِعَبْدِهِمَا فَنَحْظَى بِحُسْنِ الْحَظِّ مِنْهُمِ غَيْرَ بَخْسِ
فَلَمَّا أَنْ أَتَيْنَاهُ بِحَاجَتِنَا تَلَوَّنَ لَوْنَ وَرْسِ وَقُلْنَا
وَأَعْرَضَ غَيْرَ مُنْبَلِجٍ لِعُرْفٍ وَظَلَّ مُقَرْطِبَاً ضِرْسَاً بِضِرْسِ
فَقُلْتُ لأَهْلِهِ : أَبِهِ كُزَازٌ ؟ وَقُلْتُ لِصَاحِبِيْ : أَتُرَاهُ يُمْسِي؟
فَكَانَ الْغُنْمُ أَنْ قُمْنَا جَمِيْعَاً مَخَافَةَ أَنْ نُزَنَّ بِقَتْلِ نَفْسِ

وتَرَى إسماعيل في هذه الأبيات يصوِّر لك دقائق الموقف والمشاعر والألوان والأشكال بريشة رسام مرهف الحس ، محلِّلاً نفسية الرجُل ، والنتيجة هي خيبة آماله في هذا الصديق الذي كان شحيحاً إلى حدٍّ كان يُصَاب معه بالرِّعْدَة والقُشَعْرِيْرَةِ ، مع تَشَنُّجات وتقلُّصات واصفرار لون حين يسأله سائل شيئاً من الندَى أو القِرَى أو المال ، فإن كانت هذه حاله من غير أن يكون له فيها يدٌ أو إرادة ، فهذا دليلٌ على جِبِلَّةٍ لئيمة كان قد جُبِل عليها ، أما إذا كان يفتعل هذا الموقف افتعالاً فيكون بذلك ألأم من السابق ، لأنه يكون عندها مسؤولاً عن انقلاب حاله هذا الانقلاب المفاجئ حين يسمع بضيف أو مُجْتَدٍ ينتَجِع داره . ولا يَدَعُه إسماعيل على ما هو عليه ، بل يكيل له الهجاء الساخر حين يصوِّر لك أنه لم يرحل إلى الحسن ولا إلى أخيه الحسين ، رضي الله عنهما ، وهما من هما شرفاً وكرماً بين الناس ، ليسألهما ويحظى عندهما يقيناً بما كان يأمُل من عطاء أو صلة أو جائزة ، بل إنه لم يرحل إلى عبْدٍ لأحد عبيدهما ، ذلك لأنه لو رحل إلى هذا العبد لنال مراده عنده ، لأن الجود يكون

قد انتقل من الحسن والحسين إلى عبدهما ، ثم انتقل مرة أخرى من عبدهما إلى عبده ، وهذا أشد على المهجو وأنكى له ، على أن الشريعة لا تجيز للعبد أن يمتلك عبيداً قبل أن يصبح عتيقاً ، ولكن الشاعر أراد المبالغة في ذلك ، ليظهر أن أحط الناس مرتبة ، وهو عبد العبد ، ما كان ليفعل ما فعله صديقه به ، ولكان ذلك العبد أكرمه .

ولعلَّ عناصر الإضحاك في صورة المهجو ، وقد سمع مديح إسماعيل له ، تتلخَّص جملةً في هذا التغيُّر الآلي للون الممدوح من اللون الطبيعي إلى الاصفرار الذي يرمز إلى شدة الشُّح والبخل والحرص ، وفي هذا الإعراض والتجاهل الذي يتناقض ، في الحقيقة ، مع واقع الحال ، حيث لا يمكن لصديق أن ينكر صديقه مهما طال بينهما الفراق ، مما يدلُّك على أحد أمرين : الأول أنه يفتعل هذا الإنكار افتعالاً . والثاني أنه أُصيبَ بفقدان ذاكرةٍ فلم يعد يذكر الأشخاص الذين كان يعرفهم في الماضي . والعنصر الثالث هو هذا العبوس الذي حلّ عليه فجأة ، وهذه الحركة الآلية من اصطكاك أضراسه بعضها ببعض ، وكأن قشعريرة عنيفة سرت في جسده لمرضٍ مفاجئ أصابه في التوِّ واللحظة التي سمع فيها المدح الذي يقتضي صرف جائزة للشاعر حُكْماً ، ويذكرنا هذا بتهكم أبي نواس فيما بعد على رجلٍ كان يعرفه يُدْعَى (الفضل) على النحو التالي :

رَأَيْتُ الْفَضْلَ مُكْتَئِباً يُنَاغِي الْخُبْزَ وَالسَّمَكَا
فَقَطَّبَ حِيْنَ أَبْصَرَنِيْ وَنَكَّسَ رَأْسَهُ وَبَكَى
فَلَمَّا أَنْ حَلَفْتُ بِأَنِّيْ صَائِمٌ ضَحِكَا لَهُ

ويَخْتِم إسماعيل أبياته في صاحبه (ابن أَنْسٍ) بسؤالين يتظاهر فيهما بالجِدّ ، في حين أنه كان في غاية السخرية وهو يطرحهما : طرح الأول منهما على أهل بيته ، وربما على زوجته بالذات ، قائلاً : أبزوجك داء الكُزاز ؟ لأن ما رأى عليه كان من أعراض

هذا المرض . وطرح السؤال الثاني على صاحبٍ له كان معه في هذه الزيارة قائلاً له كأنما يستشيره : أتُرى هل يأتي مساء اليوم على هذا الرجل وهو حي ؟ ويبدو أنه أشار إليه إشارة تعني أن الرجل مودِّع قبل المساء ، وهذا ما أدخل الرعب في قلب الشاعر وصاحبه ، فبادرا بالخروج من داره حتى لا يموت بينهما فيُتَّهما بأنهما كانا سبب موته حين سألاه حاجتهما ، وما يترتب على ذلك من أمور فيها خسارة لهما . وقد رأيا أن خروجهما من دار هذا الصديق كان بحد ذاته غنماً عظيماً وجائزة كبيرة نالاها ، لأن بقاءهما كان سيدخلهما في ورطة لا يدريان منتهاها . وهكذا انقلب خروجُهما خائبين من الحصول على جائزة غنيمةً تتمثَّل في النجاة بنفسيهما من تهمة التسبُّب بوفاة شخص . وهذه جميعاً مفارقات مثيرة للضحك من هذه الحادثة أو هذا الموقف ، وكان إسماعيل بارعاً في سخريته وفي دقة رسم المواقف والصور التي جعلت من الممدوح مهجواً في صورة هزلية ساخرة مثيرة للضحك والشفقة في الوقت نفسه .

(٣)

نشاطه الشعري

١ – بواكيره الشعرية :

كانت موهبة إسماعيل الشعرية قد تفتَّحت في بداية خلافة ابن الزبير سنة ٦٤هـ تقريباً وهو في حدود العشرين من عمره ، واستوت من ثم على عودها واشتدت تماماً خلالها وفي نهايتها . غير أن ما وصل إلينا من أشعاره لم يكن يحوي أيَّ إشارة إلى الأحداث التي جرت إبان هذه الخلافة ، ولا إلى أي مدح لآل الزبير أو أحد أفرادهم على الأقل ، بمن فيهم عروة بن الزبير نفسه ، ونكاد نجزم حتى اليوم بأن ما قاله إسماعيل في هذه الفترة قد امَّحى واندثر بفعل الرواية التي أسقطته مراعاة للأمويين ، لولا هذه القصائد أو القطع الغزلية الخالصة التي نرجِّح أنها تعود إلى هذه الفترة ، لأن شاعرنا كان ما بين العشرين والثلاثين من العمر ، وفي هذه السن تنشَط دواعي الغزل عند المرء فيسعى وراء المغامرات وتتبُّع النساء ، وهي لذلك يمكن أن تمثِّل لنا نماذج من أوائل ما أنتج

من أشعار ، غير أننا نضع هنا احتمالاً ممكناً هو أن تكون بعض هذه القصائد والقطع الغزلية قيلت بعد خلافة ابن الزبير .

ويمكن تقسيم مراحل الإنتاج الشعري عند إسماعيل إلى ثلاث مراحل : الأولى من سنة ٦٤هـ إلى سنة ٧٣هـ (**وهي مرحلة البدايات**) . والثانية من سنة ٧٣هـ إلى الوفادة على عبد الملك سنة ٨٥هـ (**وقد ضاعت كل أشعاره التي قيلت فيها ، إلا إذا عددنا بعض أشعاره الغزلية منتميةً إليها**) . والثالثة تمتد من سنة ٨٥هـ إلى وفاته مع انهيار الدولة الأموية (**وقد وصلت إلينا من هذه المرحل مجموعة من القصائد في موضوعات المدح والشعوبية والهجاء والسخرية**) .

٢– مكانته الشعرية :

ذكر لنا أبو الفرج في ترجمته لإسماعيل حكماً واحداً يتعلَّق بشعره ، فقد قال فيه إنه كان (**مليح الشِّعْر**) ، ويحار المرء في استنباط دلالات هذا الحكم على وجه الدقة : فقد يكون أراد أنه حسَن الشعر ، وما الشعر الحسَن ؟ لعله ذهب بالحسن إلى تناسبه من حيث البناء والشكل ، أو من حيث اللغة والنحو والعَروض ، أو من حيث جمال المعاني ورقتها ، أو من حيث الموضوعات التي قال فيها . وقد يكون قصَد اجتماع كل هذه الجوانب معاً .

وينقل ابن سلام في (طبقاته) عن جويرية بن أسماء أنه سأل **نُصَيْب بن رَبَاح** (مولى عبد العزيز بن مروان) : (**من أشعر الناس ؟ فقال : أخو بني تميم** [ويعني به جريراً] ، **قلتُ ثم مَن ؟ قال : أنا . قلت : ثم من ؟ قال : ابن يَسَار النِّساء** [يعني إسماعيل]) . غير أننا نرى ابن سلام يختار نصيباً رابعاً في الطبقة السادسة من فحول الشعراء الإسلاميين (أي أنه يحتلّ المرتبة ٢٤ ضمن الأربعين الذين اختارهم) ، ولم يُدخِل ابن سلام إسماعيل في طبقاته أصلاً .

٣– أنواعه الشعرية :

طرق إسماعيل في شعره الأنواع التقليدية ، وهي : **المديح** ، **والهجاء** ، **والغزل** ، **والرثاء** ، **والفخر** ، وزاد عليها نوعين آخرين هما : **العتاب** ، **والحكمة** . وقد كان فخر إسماعيل منصبّاً انصِباباً كاملاً تقريباً على الفخر بالعجم والتعصُّب لهم ، فيما يعرف بـ (**تيار الشعوبية**) ، وقد تطرَّقْنا آنفاً إلى القطعة الوحيدة في الهجاء والسخرية .

وأما المديح فقد وصلت إلينا منه قصيدتان : إحداهما في (عبد الملك بن مروان) ، والثانية في (الغمر بن يزيد) أخي (الوليد بن يزيد) . وأما الرثاء فقد وصلت إلينا منه أربع قصائد ومقطوعة أصلها قصيدة : رثى أخاه (محمد بن يسار) بواحدة منها ، ورثى باثنتين منها (محمد بن عروة بن الزبير) الذي وفد مع أبيه ومع إسماعيل على الوليد بن عبد الملك ، فسقط من سطح بين خيل الوليد فجعلت تَرْمَحُه حتَّى قطَّعتْه ، يقول في إحداهما (من الكامل) :

صَلَّى الإِلَهُ عَلَى فَتَىً فَارَقْتُهُ بِالشَّامِ فِيْ جَدَثِ الطَّوِيِّ الْمُلْحَدِ

بَوَّأْتُهُ بِيَدَيَّ دَارَ إِقَامَةٍ نَائِي الْمَحَلَّةِ عَنْ مَزَارِ الْعُوَّدِ

وَغَبَرْتُ أُعْوِلُهُ وَقَدْ أَسْلَمْتُهُ لِصَفَا الأَمَاعِزِ وَالصَّفِيْحِ الْمُسْنَدِ

أَعْنِي ابْنَ عُرْوَةَ إِنَّهُ قَدْ هَدَّنِيْ فَقْدُ ابْنِ عُرْوَةَ هَدَّةً لَمْ تُقْصِدِ

ورثى بواحدة (يحيى بن عروة بن الزبير) أخا محمد ، ورثى بالمقطوعة (أبا بكر بن حمزة بن عبد الله بن الزبير) ، وهي من قصيدة طويلة لم يبقَ منها سوى بيتين . وكانت معاني إسماعيل في المديح والرثاء والغزل معانِيَ تقليدية ليس فيها تجديد ولا إبداع ، وكأنما كان يقلِّد معاني شعراء العرب فيهما تقليدَ نَسْخٍ .

وأما (الحكمة) فكانت عنده – فيما وصل إلينا من شعره – نوعاً ضامراً ضموراً كبيراً ، ومنها حكمة تؤيِّد تحليلنا لخُلق المداهنة والنفاق عنده ، يقول فيها (من الوافر) :

وَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنَّ الْغَيَّ دَعَاكَ إِلَيْهِ إِخْوَانَ الصَّفَاءِ فَيْمَا

فَجَامِلْهُمْ بِحُسْنِ الْقَوْلِ فيما أَرَدْتَ وَقَدْ عَزَمْتَ عَلَى الإِبَاءِ

وكان (الغزل) عنده نوعاً بارزاً أكثر من غيره سنذكره أدناه .

٤– تأثُّره بالمدارس الغزلية في الحِجاز :

كان الغزل نوعاً شعرياً أثيراً عند إسماعيل يتميَّز بالرقة والرشاقة ، ولعلَّ هذا ناجِمٌ – بطبيعة الحال – عن تأثُّره بالبيئة الحجازية بمواصفاتها التي اكتسبتها في العصر الأموي ، وبما كان فيها من ازدهار الغناء والموسيقى ومدارس غزلية . وكان إسماعيل معاصراً ، في الوقت نفسه ، لشعراء الغزل الكبار في العصر من أمثال **عمر ابن أبي ربيعة وجميل بُثَيْنَة وكُثيِّر عَزَّة** . ويذكِّرنا غزله أكثرَ ما يُذَكِّرنا بطريقة مدرسة الغزل الحضري في شعر عمر خاصَّة . ولكن التدقيق في غزله يبيِّن لنا أنه كان مشتَّتاً بين مدارسه الثلاث :

أ) مدرسة الغزل التقليدي : ونجد هذا النوع من الغزل في مطالع قصائده التي مدَح بها أو فَخَر ، على عادة الشعراء في هذين النوعين وأشباههما ، وهو لا يريد به ، في هذا الموضع من القصيدة ، أن يعبِّر تعبيراً صادقاً عن حبه الحقيقي أو وجده بمن يحبّ ، وإنما أتى به ليكون مجرَّد تمهيدٍ لطيف لغرضه الأساسي من القصيدة ، ولذا فقد خلَطَه بذكر الأطلال ، على شاكلة قوله في مطلع قصيدته التي مدح بها هشام ابن عبد الملك ، وهو بالرُّصافة ، في آخر لقاء بينهما (من البسيط) :

يَا رَبْعَ رَامَةَ بِالْعَلْيَاءِ مِنْ رِيْمِ هَلْ تُرْجِعَنَّ إِذَا حَيَّيْتُ تَسْلِيْمِي

مَا بَالُ حَيٍّ غَدَتْ بُزْلُ الْمَطِيِّ تَخْدِيْ لِغُرْبَتِهِمْ سَيْرَاً بِتَقْحِيْمِ

بِهِمْ

كَأَنَّنِيْ يَوْمَ سَاروا شَارِبٌ سَلَبَتْ فُؤَادَه قَهْوَةٌ مِن خَمْرِ دَارُوْمِ

ب) مدرسة الغزل العذري : ونجد بعض قطع إسماعيل في الغزل تنصبُّ في تيار هذه المدرسة انصباباً قوياً ، وهو إنما يُقلِّد ، في غالب الأحيان ، هؤلاء الشعراء الذين قالوا في هذا الاتِّجاه ، ولا سيما جميل بثينة من بينهم ، وتبدو لنا أبرز سِمَات هذه المدرسة واضحة في هذا الشعر : كالعفَّة ، وتوقُّد العاطفة ، وكثرة الشكوى ، والخضوع للمحبوب ، وغيرها . ومن ذلك قوله مثلاً (من الكامل) :

يَا هِنْدُ رُدِّي الْوَصْلَ أَنْ يَتَصَرَّمَا وَصِلِي امْرَأً كَلِفَاً بِحُبِّكِ مُغْرَمَا

لَوْ تَبْذُلِيْنَ لَنَا دَلاَلَكِ مَرَّةً لَمْ نَبْغِ مِنْكِ سِوَى دَلاَلِكَ مَحْرَمَا

مَنَعَ الزِّيَارَةَ أَنَّ أَهْلَكِ كُلَّهُمْ أَبْدَوْا لِزَوْرِكِ غِلْظَةً وَتَجَهُّمَا

ج) مدرسة الغزل الحضري (الحِسِّيّ أو العُمَرِيّ) : ونعني بها في المرتبة الأولى نَهْجَ عُمَر بن أبي ربيعة في شعره الذي قَصَرَه على الغزل ، ونجد إسماعيل في بعض شعره يسير على خُطا مدرسة عمر التي وَسَّع بها سُبُلَ القول في الغزل . وأول سِمات هذا النوع من الغزل أنه لا يكتفي بذكر امرأة واحدة ، كما يفعل العذريون ، بل إنه يتناول في كل قصيدة أو قطعة شعرية محبوبة مختلفة ، ونجد إسماعيل يتغزَّل في شعره مثلاً بعدد من النساء منهن (هِنْدٌ ، وجُمْلٌ ، وسَلْمَى ، وسُلَيْمَى ، وكَلْثَم) ، وإن دلّ هذا العدد على شيء ، فإنما يدلّ على أن هذه الأسماء إنما هي رموزٌ للمرأة عامة ، وليست خاصة بنساء حقيقيات أو معيَّنات ، ويشترك معظم الشعراء بذكر هذه الأسماء نفسها ، أي أنه يقلِّد ما ورد في شعر عمر تقليداً نظرياً فقط .

وتبدو لنا في غزل إسماعيل أيضاً سِمَةٌ أخرى بارزة تَمُتُّ إلى هذه المدرسة بصِلةٍ قويَّةٍ ، وأعني بها التطرُّق إلى هذه المغامرة الليلية المتخيَّلة التي يكون الشاعر فارسها ، ليبرهن على شجاعته وإقدامه لا في ساحات القتال ، وإنما في ساحات ربات الحِجال ، إذ يتسلَّل إلى حَيِّ محبوبته ، وقد ناموا أو أوشكوا على النوم ، وسكنت الحركة ، وهدأت

الأصوات ، وخَمَدَت النيران ، وازداد الليل ظُلْمَة ، وأخذت نجوم الليل تلمع على صفحة السماء ، فيدخل خِدْر المحبوبة أو غرفتها ، فتفاجأ به أمامها ، فتخوِّفه من حُرَّاس القبيلة ومن أبيها وإخوتها وعمها وخالها الذين يترصَّدون له بغية اصطياده ، فتبكي قليلاً وتُبْدِي خوفها ، ثم تهدَأ نفسها ، ثم يجنيان من اللذات والمسرَّات ما كُتِب لهما أن يجنيا طوال الليل إلى أن يُفْصِح الصبح بأنواره الأولى ، وعندها يودِّع كلٌّ منهما الآخر مضْطرَّاً ، فيخرج الشاعر كما دخل متسلِّلاً بلا حِسٍّ ولا حركة يمكن أن تلفِت إليه الأنظار : وواضح أن هذه المغامرة كان يرافقها دائماً هذا الوصف الحسِّيّ للمتعة التي أصابها الشاعر من محبوبته ، وهذه أبيات مختارة من مغامرة وردت عند إسماعيل في قصيدة طويلة يجري فيها على طريقة عمر ، بل إن المرء يشعر وهو يقرؤها أنه يقرأ شعراً لعمر نفسه ، نظراً لشدَّة التلبُّس الناتج عن المعاصرة في اللغة والأسلوب والبيئة والذوق ، إضافة إلى عنصر التأثُّر والتقليد ، يقول فيها (من السريع) :

كَلْثَمُ أَنْتِ الْهَمُّ يَا كَلْثَمُ وَأَنْتُمُ دَائِي الَّذِيْ أَكْتُمُ

... ...

أُخَافِتُ الْمَشْيّ حِذَارَ وَالْلَيْلُ دَاجٍ حَالِكٌ مُظْلِمُ الْعِدَا

وَدُوْنَ مَا حَاوَلْتُ إِذْ زُرْتُكُمْ أَخُوْكِ وَالْخَالُ مَعَاً والْعَمُ

وَلَيْسَ إِلاَّ اللهَ لِيْ صَاحِبٌ إِلَيْكُمُ وَالصَّارِمُ الْلَهْذَمُ

حَتَّى دَخَلْتُ الْبَيْتَ مِنْ شَفَقٍ عَيْنَاكِ لِيْ تَسْجُمُ فَاسْتَذْرَفَتْ

ثُمَّ انْجَلَى الْحُزْنُ وَرَوْعَاتُهُ وَغُيِّبَ الْكَاشِحُ وَالْمُبْرِمُ

فَبِتُّ فِيْمَا شِئْتُ مِنْ يَمْنَحُنِيْهَا نَحْرُهَا وَالفَمُ نِعْمَةٍ

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ بَدَا ضَوْؤُهُ وَغَارَتِ الْجَوْزَاءُ والْمِرْزَمُ
خَرَجْتُ وَالْوَطْءُ خَفِيٌّ كَمَا يَنْسَابُ مِنْ مَكْمَنِهِ الأَرْقَمُ

تيار شعر الصعاليك في العصر الأموي

مالك بن الرَّيْب التميمي (م٥٨هـ)

تمهيد :

عَرَف شعرُنا العربي حركةً اجتماعية في العصر الجاهلي تثور على الظلم وتحتج على التفاوت الضخم بين فئات المجتمع في الثروات والْمُلْكِيات ، كما تحتج على عدم التعاطف والتكافل بين الأغنياء والفقراء فقراً مدقعاً ، وعُرِفَتْ هذه الحركة بحركة الصعاليك ، والصعلوك هو الفقير المعدَم الذي لا يملك قوت يومه ، وكانت حركتهم تنقسم إلى تيارين : تيار الصعاليك الواعين الذين كانوا يدركون الظلم المحيق بهم ويعملون على نهب أموال الأغنياء البخلاء واللؤماء فقط ، لتوزيعها على الصعاليك ، أما الكرماء المُفْضِلُون فلم يكونوا يعتدون عليهم ولا على أموالهم ، وبرز **عُرْوة بن الورد العبسي** في نجد زعيماً لهذا التيار ، وكان يقود أتباعه عن قناعة بحقوقهم ، مع أنه كان ابن سيِّدٍ غني من سادات عبس ، وقد عبَّر في شعره عن أخلاق أصحابه ، وذمَّ فيه أيضاً أتباع التيار الثاني الذين كانوا خارجين على مبادئ تياره ، لأنهم كانوا يرون قطع الطريق على الناس وسرقتهم بلا تمييز ، وكانوا يميلون إلى الاستئثار والأنانية والتواكل والتهاون والكسل أيضاً . وبرز من بين شعراء الصعاليك : **تأبَّط شراً ، والشَّنْفَرَى ، والسُّلَيْكُ بن السُّلَكَة** .

ولما جاء الإسلام وساد بين العرب في جزيرتهم ، ثم في خارجها ، زالت حركة الصعاليك تماماً ، لأن الإسلام سدَّ منافذ الفقر والحاجة بسنه فريضة الزكاة وحثِّه على الصدقات في مناسبة وبغير مناسبة ، وتوجيهه أنظار العرب إلى الفتح الذي فتح لهم باباً واسعاً من أبواب الغنى والثروات ، وتشدَّد – في الوقت نفسه – في عقوبة السارق

، وقاطع الطريق ، والقتل في الغزو ، والثأر ، أي أن الإسلام أوجد حلولاً للمشكلة الاقتصادية التي كانت وراء تلك الأمراض : فأغلق أبواباً مُضِرَّةً ومحرَّمة ونهى عنها ، وفتح مقابلها أبواباً نافعةً ومشروعة وحثَّ عليها .

غير أن المشكلة الاقتصادية عادت إلى الظهور في العصر الأموي نتيجة احتجان خلفاء بني أمية للأموال ، وحَصْرِ صرفها على مَنْ يواليهم وفي مصالحهم وعلى إداراتهم ، وعدمِ قدرتهم على تطوير موارد المجتمع ، فعادت حركة الصعلكة إلى الظهور على مستوى الأفراد والجماعات ، وعادت القبائل يغزو بعضها بعضاً وهم جميعاً على الإسلام ، وكانت بعض قبائل الأعراب تقطع الطريق على قوافل التجار ، بل إنها لم توفِّر نهب قوافل الحجاج الذين كانوا يقصدون بيت الله الحرام لأداء ركن من أركان الإسلام (وبقيت هذه الظاهرة حتَّى أواخر عهد العثمانيين في الحجاز والشام وظهور الدول العربية الحديثة) .

ومن الصعاليك الذين اشتهروا في العصر الأموي شاعرنا (مالك بن الرَّيْب) الذي هو موضوع حديثنا الراهن :

١ – نسبه ومولده وموطنه :

ينتسب مالك إلى بني مازِن من قبيلة تميم الشهيرة ، في الجاهلية وصدر الإسلام والعصر الأموي ، بكثرة العدد ، والانتشار الواسع على الأرض ، قبل الفتوح الإسلامية وبعدها ، حتى إن أعداداً كبيرة منهم استوطنوا في خراسان بعد فتحها ، كما اشتهروا بكثرة الشعراء وكثرة الشخصيات البارزة منهم . ولا نعلَم تاريخ ميلاد مالكٍ على وجه الدقة ، غير أننا نعلم أنه لما توفي كان متزوجاً وله أولاد ، وكان والداه على قيد الحياة ، وكان له أختان ، واستناداً إلى ذلك يمكن تقدير سِنِّه عند موته بما يقارب الأربعين عاماً ، وإذا كانت وفاته – على ما يجمع عليه القدماء والمحدثون – سنة ٥٨هـ ، فيكون مولده نحو سنة ١٨هـ تقريباً (أي في زمن خلافة عمر بن

الخطاب) . وأما موطن أهله ومنشؤه فقد ذكر أبو الفرج ، في (أغانيه) ، أنه في بادية بني تميم بالبصرة ، وهذا يعني أنه نشأ في الموطن الذي نشأ فيه الفرزدق التميمي في بادية كاظمة جنوبي البصرة .

٢– صعلكته :

كان مالكٌ فقيراً معدَماً ، ويكثِر من الشكوى من عَسْفِ عمال بني أمية على الصدقات ، فكانوا لا يردون على فقراء قومه المستحقين ما يجمعون من أغنيائهم ، ويعدّ ظلمهم سبب فقره هو وغيره من فقراء المسلمين ، فأخذ ينتقد الأمويين على عدم ضبطهم الأمور المالية . ولذا خرج هو ورُفقَةٌ مثلُه يقطعون الطريق على الناس وينهبونهم شرقي المدينة المنورة من أرض نجد وفي القصيم ، وكان أميرَ المدينة وقتَها لمعاوية مروانُ بنُ الحَكَم ، فشكا الناس إليه أمرهم ، فطلبهم فهربوا إلى أرض عامل له ، فأرسل إليه بطلبهم فهربوا ، فبعث رجالاً من الأنصار ، فأمسكوا بمالكٍ ورفيقٍ له ، وجردوهما من السلاح ، فلما كان مالكٌ ببعض الطريق غافل مرافقه وسلبه سيفه وقتله به ، ثم لحق برفيقه وقتل مرافقه ، وفرا معاً من ثم إلى أرض فارس حتَّى لا يلحق بهما الطلب ، وراحا هناك يقطعان الطريق ويتلصَّصانِ مع من انضم إليهما من الصعاليك الآخرين على شاكلتهما .

ومما يُروى عن شجاعة مالكٍ وقوة قلبه ويده أنه بوغتَ ، في إحدى الليالي ، وهو نائم في قفرٍ وحيداً ، بثِقَلٍ كالجبل يحطّ عليه فجأة ، وكان لاينام إلا والسيف في ثيابه ، فانتفض وأزاحه عنه ، ثم سلَّ سيفه وضربه به ، فشطره شطرين ، ثم نظر ما يكون ، فإذا هو رجلٌ أسود كان يقطع الطريق هنالك ، وقال يفخر بنفسه لهذه الحادثة (من البسيط) :

أَدْلَجْتُ بِيْ مَهْمَهٍ مَا إِنْ أَرَى أَحَداً ... حَتَّى إِذَا حَانَ تَعْرِيْسٌ لِمَنْ نَزَلاَ

وَضَعْتُ جَنْبِيْ وَقُلْتُ اللهُ يَكْلَؤُنِيْ ... مَهْمَا تَنَمْ عَنْكَ مِنْ عَيْنٍ فَمَا غَفَلاَ

مَا نِمْتُ إِلاَّ قَلِيْلاً نِمْتُهُ شَغِزَاً ... حَتَّى وَجَدْتُ عَلَى جُثْمَانِيَ الثِّقَلاَ

لَمَّا ثَنَى اللهُ عَنِّيْ شَرَّ عَدْوَتِهِ رَقَدْتُ لاَ مُثْبَتَاً ذُعْرَاً وَلاَ بَعِلاَ

نلاحظ عند الشاعر في هذه الأبيات نَفَسَاً شِعريّاً مَلْحَميّاً ، وكان يمكن أن يبدع في هذا المجال لو أتيح لصاحبه شيءٌ من الاستقرار والغنى والثقافة الملحمية ، وذلك لأن القدرة على السَّرد الشعري عنده واضحة للعِيَان : فهو يقص الحدَثَ ويتدرج فيه من أوله إلى آخره ، ويعرِض حالته في نوع من التشويق .

ويُرْوَى عنه أيضاً أنه كان ليلةً في بعض مفازاته ، فبَيَّتَه ذئب ، فزجره فلم يزدجر ، ثم أعاد عليه الزجرَ ، فلم ينصرف ، فوثب عليه مالكٌ بغتةً ، وضربه بالسيف ، فقتله ، وقال يفخر بما صنع (من الطويل) :

أَذِئْبَ الْغَضَا قَدْ صِرْتَ لِلنَّاسِ ضُحْكَةً تُغَادِي بِكَ الرَّكْبَانُ شَرْقَاً إلى غَرْبِ
فَأَنْتَ وَإِنْ كُنْتَ الْجَرِيْءَ جَنَانُهُ مُنِيْتَ بِضِرْغَامٍ مِنَ الأُسُدِ الْغُلْبِ
أَلَمْ تَرَنِيْ يَا ذِئْبُ إِذْ جِئْتَ طَارِقَا تُخَاتِلُنِيْ أَنِّي امْرُؤٌ وَافِرُ اللُّبِّ
زَجَرْتُكَ مَرَّاتٍ فَلَمَّا غَلَبْتَ ي وَلَمْ تَنْزَجِرْ نَهْنَهْتُ غَرْبَكَ بِالضَّرْبِ
أَرَى الْمَوْتَ لاَ أَخْاشُ عَنْهُ تَكَرُّمَاً وَلَوْ شِئْتُ لَمْ أَرْكَبْ عَلَى الْمَرْكَبِ الصَّعْبِ
وَلَكِنْ أَبَتْ نَفْسِيْ وَكَانَتْ أَبِيَّةً تَقَاعَسُ أَوْ يَنْصَاعَ قَوْمٌ مِنَ الرُّعْبِ

ويذكِّرنا هذا الاستقبال العدائي ، الذي واجه به الشاعر الذئبَ ليلاً ، بالاستقبال التكريمي الذي واجه به الشاعر الفرزدق التميمي ليلاً ذئباً غيره ، فنال عنده حظاً وافراً من الشواء الذي كان يضعه على النار في موقف إنساني رفيع يسجَّل للفرزدق ، نظراً لأنه تجاوز بفعله الرفقَ بالحيوان الأهلي والمأنوس الذي أمر به ديننا إلى الحيوان المفترس عدو الإنسان ، وقد ذكر ذلك في شعره فقال :

وَأَطْلَسَ عَسَّالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبَاً دَعَوْتُ بِنارِيْ مَوْهِنَاً فَأَتَانِي
فَلَمّا دَنا قُلْتُ : ادْنُ دُوْنَكَ إِنَّنِيْ وَإِيَّاكَ فِيْ زادِيْ لَمُشْتَرِكَانِ
فَبِتُّ أُسَوِّي الزَّادَ بَيْنِيْ وَبَيْنَهُ عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدُخَانِ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَكَشَّرَ وَقَائِمُ سَيْفِيْ مِنْ يَدِيْ بِمَكَانِ :

ضَاحِكَاً

تَعَشَّ فَإِنْ وَاثَقْتَنِيْ لا تَخُونُنِيْ نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَا ذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ

وهكذا عامل كلٌّ من الشاعرين ذئبه بما يتناسب مع شخصيته وطبيعته . ويُرْوَى عن مالك ، وهو مع سعيد بن عثمان ، أنهم احتاجوا إلى لبن (حليب) ، فطلبوا صاحب إبلِهم فلم يجدوه ، فطلب مالك إلى غلام أن يُحضِر ناقة لسعيد فمسح على ضَرْعِها حتَّى دَرَّتْ ، ثم حلَبَها أحسَنَ حَلْبٍ وأغْزَرَه ، فلما علِم سعيد بما فعل أعجبه ذلك فعرَض على مالك أن يقوم بأمر إبلِه ، وأن يعطيَه أجراً فوق ما أجراه عليه آنفاً ، وأن يُعْفِيَه من الغزو ، فأبى مالكٌ ، وهو الشاعر الطموح والفارس الأبي قبول هذا العرض ، وأحسَّ أن سعيداً أهانه به ، فقال (من الطويل) :

وَإِنِّيْ لأَسْتَحْيِيْ الْفَوَارِسَ أن أُرَى بِأَرْضِ الْعِدَا بَوَّ الْمَخَاضِ الرَّوَائِمِ

وَإِنِّيْ لأَسْتَحْيِيْ إذا الْحَرْبُ شَمَّرَتْ أَنُ ارْخِيَ دُوْنَ الْحَرْبِ ثَوْبَ الْمُسَالِمِ

وَمَا أَنَا بِالنَّائِيْ الْحَفِيْظَةِ فِي الْوَغَى وَلاَ الْمُتَّقِيْ فِي السِّلْمِ جَرَّ الْجَرَائِمِ

وَلاَ الْمُتَأَنِّيْ فِي الْعَوَاقِبِ لِلَّذِي أَهُمُّ بِهِ مِنْ فَاتِكَاتِ الْعَزَائِمِ

لأن سعيداً أراد لمالكٍ أن ينتقل من مجال الفروسية إلى مجال الحلب والصر ، على عكس ما جرى لعنترة الذي انتقل في قومه من مجال الحلب والصر إلى مجال الفروسية ، وهذا أمرٌ يحط من قَدْر مالك ومنْزِلتِه بين أقرانه ، ويخالف تماماً فلسفته التي يؤمن بها في الحياة .

٣- شخصيته :

يذكر أبو الفرج أن مالكاً كان من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم ثياباً ، وأضاف القالي في (ذيل أماليه) أنه كان أيضاً من أبينِ العرب بياناً . وكان شجاعاً قويَّ النَّفْس ، يتطلَّع إلي المعالي ، وهذا ما أعجب منه سعيد بن عثمان بن عفان الذي كان معاوية قد ولاه على خراسان ونواحيها ، وأمَّره على جيش للفتح في ثغورها الشمالية ، فلقي وهو مارٌّ بفارس مالكاً وأصحاباً له ، وهم يقطعون الطريق ، فسأله

: (**مالَك ويحكَ ، تُفْسِد نَفْسَكَ بقطع الطريق ؟!.. وما يدعوك إلى ما يبلغني عنكَ من العَبَثِ والفساد وفيك هذا الفضل ؟!.. قال : يدعوني إليه العَجْزُ عن المعالِي ومساواةِ ذوي المروءات ومكافأةِ الإخوان . قال : فإن أنا أغنيتُكَ واستصحبتُكَ .. أتَكُفُّ عما كنتَ تفعَلُ ؟ قال : إيْ والله أيها الأمير .. أكُفُّ كَفّاً لم يَكُفَّ أحدٌ أحسَنَ منه**) ، فأخذه معه وأجرى عليه ٥٠٠ درهمٍ كلَّ شهر ، وهو مبلغ مبالغ فيه آنذاك ، لأن أحد شعراء العصر يقول في بعض شعره (.. والشاةُ السَّمينُ بِدِرْهَمِ) ، والأكثر منه مبالغة ما رواه أبو علي القالي في (ذيل أماليه) من أنه أجرى عليه في الشهر ٥٠٠ دينار ، وهذا وهم كبير . ورُوِي أن سعيد بن عثمان مرَّ في طريقه من المدينة إلى البصرة ، قاصداً خراسان بعد تعيينه عليها ، بموطن مالكٍ فرآه وكلَّمه بما ذُكِر ، فسار معه .

٤– فلسفته في الحياة :

يمكن أن نستنبط فلسفة مالك بن الريب في الحياة من خلال أخباره وما وصل إلينا من بقية شعره ، فنرى أنها تتركَّز في أن يعيش المرء في هذه الحياة كريماً ، مكتفياً من الناحية المادية ، وأن يكون همُّه فيها بلوغَ المعالي وأن يتمتع بين قرنائه بالشجاعة والقوة والإباء ، فإن لم يتوافر له ذلك ، لسبب من الأسباب ، ذهب إلى تطبيق ما قال به علي (ر) : (**عجبت لمن لا يملك قوت يومه كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفَه**) ، فخرج مالك يتلصَّص ويقطع الطريق ، ذلك لأن سوء الحال وغياب العدالة وانتشار الظلم من أبرز أسباب الاندفاع في السبل التي توقع المجتمع في الفوضى ، ولهذا نجد مالكاً عندما يعِده سعيد بن عثمان بأن يُغْنِيَه يكُفُّ أحسَنَ الكَفِّ عما هو فيه من فساد وانحراف أو خروج على المجتمع . وهو في كل حالاته متوكِّلٌ على الله مسلِّم مصيره إليه تسليماً مطلقاً ، لا يهتم بعده لما تجيء به الأيام والأحداث أياً ما كانت .

٥– حِسّه الأبوي الإنساني الحيّ :

ترك لنا مالك قصيدة شعرية قصيرة يصوِّر فيها لحظة الفراق والوداع الأخيرة قبل مغادرته أسرته وموطنه وأهله ، من خلال تعلُّق بُنَيَّة له بثيابه ومن خلال الحوار الذي دار بينهما ، ولم يعُد مالك بعده إلى موطنه ولا إلى أهله وأسرته ، وتحقَّق ما كانت ابنته تتخوَّف منه ، فكان هذا الوداع بالفعل هو الوداعَ الأخير بينه وبينها ، وفي الأبيات التالية من القصيدة ما يصوِّر هذا الموقِف الإنساني الذي تكرَّر كثيراً في حياة الناس – كما نعتقد – منذ ذلك الزمان إلى يومنا ، وسيظلّ يتكرَّر في المستقبل أيضاً ، نظراً لأن ظروف الحياة تتماثل وتتكرَّر في كل زمان ومكان على ظهر هذه البسيطة ، يقول مالك (من الخفيف) :

وَلَقَدْ قُلْتُ لابْنَتِيْ وَهْيَ تُبْكِيْ ... بِدَخِيْلِ الْهُمُوْمِ قَلْباً كَئِيْبَا
وَهْيَ تُذْرِيْ مِنَ الدُّمُوْعِ عَلَى الْخَدْ ... دَيْنِ مِنْ لَوْعَةِ الْفِرَاقِ غُرُوْبَا
عَبَرَاتٍ يَكَدْنَ يَجْرَحْنَ مَا جُزْ ... نَ بِهِ أَوْ يَدَعْنَ فِيْهِ نُدُوْبَا
حَذَرَ الْحَتْفِ أَنْ يُصِيْبَ أَبَاهَا ... وَيُلاَقِيْ فِيْ غَيْرِ أَهْلٍ شَعُوْبَا
أُسْكُتِيْ قَدْ حَزَزْتِ بِالدَّمْعِ قَلْبِيْ ... طَالَمَا حَزَّ دَمْعُكُنَّ الْقُلُوْبَا
فَعَسَى اللهُ أَنْ يَدَافِعَ عَنِّيْ ... رَيْبَ مَا تَحْذَرِيْنَ حَتَّى أَؤُوْبَا
لَيْسَ شَيْءٌ يَشَاؤُهُ ذُو الْمَعَالِيْ ... بِعَزِيْزٍ عَلَيْهِ فَادْعِي الْمُجِيْبَا
وَدَعِيْ أَنْ تُقَطِّعِيْ الآنَ قَلْبِيْ ... أَوْ تُرِيْنِيْ فِيْ رِحْلَتِيْ تَعْذِيْبَا
أَنَا فِيْ قَبْضَةِ الإِلَهِ إِذَا كُنْـ ... ـتُ بَعِيْدَاً أَوْ كُنْتُ مِنْكِ قَرِيْبَا
كَمْ رَأَيْنَا امْرَأً أَتَى مِنْ بَعِيْدٍ ... وَمُقِيْماً عَلَى الفِرَاشِ أُصِيْبَا
فَدَعِيْنِيْ مِنِ انْتِحَابِكِ إِنِّيْ ... لاَ أُبَالِيْ – إِذَا اعْتَزَمْتُ – النَّحِيْبَا
حَسْبِيَ اللهُ ثُمَّ قَرَّبْتُ لِلسَّيْـ ... ـرِ عَلاَةً أَنْجِبْ بِهَا مَرْكُوْبَا

إن الشاعر يعبِّر عن هذا الخوف الطبيعي من قبل الأبناء على المصير المجهول لآبائهم حين يفارقونهم إلى جهة مخوفة ، وخاصَّة البنات الضِّعَاف ، اللواتي عبَّر أحدُ شعراء

الخوارج ، وهو عيسى بن عاتِك ، حين عاتبه إخوانه من الخوارج على قعوده عن قتال أعدائه ، أن قعوده عن الخروج إنما كان بسببهن ، وعلَّل ذلك بقوله (من الوافر) :

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّاً بَنَاتِيْ إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ
مَخَافَةَ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِيْ وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقَاً بَعْدَ صَافِ
أَبَانَا مَنْ لَنَا إِنْ غِبْتَ عَنَّا وَصَارَ الْحَيُّ بَعْدَكَ فِي اخْتِلاَفِ

ويعبِّر مالك في حواره مع ابنته عن شدَّة تأثُّرِه بدموعها التي كانت تجرح قلبه وتمزِّقه ، ويردّ على خوفها عليه بأن الله يرعاه في بعده ، وأن البعد قد لا يكون بالضرورة سبباً للهلاك ، وأن القُرْب لا يمنع حتماً من وقوع هذا الهلاك على الناس ، ثم إنه يشجِّع نفسَه ويُقَسِّي قلبَه في هذا الموقف الذي تضعف فيه النفس البشرية ، ويتظاهر ، وهو يهمّ بالانطلاق على ظهر ناقته ، بالجلَد والقوة حين يقول لابنته أخيراً إنه لا يبالي نحيبَها ولا دموعها ..

وبالفعل ، يمضي مالك إلى طِيَّته ليمارس قَطْعَ الطريق والتلصُّصَ مع بعض رفاقه إلى أن يلتقي في طريقه ببلاد فارس بسعيد بن عثمان ..

٦– جهاده في ثغور خراسان :

تحولَّ مجرى حياة مالك من الضلالة إلى الهدى حين التقى بسعيد بن عثمان ابن عفان سنة ٥٦هـ ، حين ولاّه معاوية ، في أواخر خلافته ، على خراسان للجهاد في سبيل الله في بعض ثغور خراسان ، فعرض على الشاعر الذي كانت له آنذاك شهرته فيما يبدو لنا بدليل هذا الحوار الذي جرى بينهما ومر بنا آنفاً ، وقد عبَّر مالك عن هذه التحول حين قال في يائيته الشهيرة التي رثى بها نفسَه (من الطويل) :

أَلَمْ تَرَنِيْ بِعْتُ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِيْ جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غازِيَا
وَأَصْبَحْتُ فِيْ أَرْضِ الأَعَادِيِّ بَعْدَمَا أَرَانِيَ عَنْ أَرْضِ الأَعَادِيِّ قَاصِيَا

وهو يُقِرّ على نفسه ، هنا ، بضلاله حين كان يعمل في قطع الطريق على الناس وفي قتلهم ، ويفرح بما عَرَض سعيدٌ عليه ، وهذا برهانٌ على أنه كان غيرَ راضٍ عما كان يفعل ، وربما كان يشعر في دخيلته باحتقار نفسه وهو يرى أن أعماله خارجةٌ على أعراف المجتمع وأخلاقه وعلى قيم الدين الذي يؤمن به ، ويعلم أنها أعمالٌ مصنَّفة في حقل الظلم والضلال والظلمات والانحرافات وشق العصا .. ولذا أراد أن يُطَهِّر نفسه من أدرانها بالجهاد مع سعيد في سبيل الله ، لعلَّه يعود إلى الشعور باحترام نفسه ، ويكفِّر عن سيِّئاتِه ..

وقد شارك مالكٌ ، خلال ثلاث سنوات من الجهاد ، هي ٥٦و٥٧و٥٨هـ ، في معارك كثيرة في ثغور خراسان ضمن جيش سعيد وأبلى فيها بلاءً حسناً ، كما شارك في فتح مدينة (**سَمَرْقَنْد**) ومدينة (**تِرْمِذ**) الواقعتين اليوم في جمهورية (**أُوزْبِكستان**) التي تضم أيضاً مدينة (**بُخارى**) ومدينة (**طَشْقَنْد**) ، وكان لأكثر هذه المدن دورٌ عظيم في تاريخ الإسلام قديماً .

وقد كان شعره يعبِّر بصدق عن طبيعة حياته التي مرَّ بها في مرحلة (**التصعلُك**) أولاً ، ثم في مرحلة (**الجهاد**) ، وكانت هذه الحياة – في رأينا – صورة مصغَّرة لتحوُّل طاقة العرب الحربية وقوَّتهم ، في صدر الإسلام ، من الهدر والضياع والعبث فيما بينهم ، عن طريق التغازي والتنازع والثأر والصراع لأتفه الأمور (كداحس والغبراء أو البسوس) ، إلى توظيفها في عمل حضاري وبنّاء هو نشر الإسلام والعربية في آفاق المعمورة التي قدر العرب الوصول إليها من حدود الصين وأواسط آسيا إلى حدود فرنسا والمحيط الأطلسي .

ومما يجدر ذكره ، هنا ، أن مالكاً عاد من خراسان حين عزل معاوية سعيد ابن عثمان عن عمله فيها سنة ٥٨هـ ، لأن الناس في خراسان وما وراءها أحبوا سعيداً ، وكانت له شعبية كبيرة ، وكان سعيد ذا طموح ، فخاف معاوية أن يصنع به سعيد كما صنع هو بعلي (ر) فيما مضى .

٧– رثاؤه لنفسه ووفاته :

اختلف القدماء في سبب وفاة شاعرنا مالك بن الريب : فقال بعضهم إنه أصيب بمرض ورأى أن يعود إلى أهله ، في بادية البصرة ، للعناية به ، مع بعض أبناء قبيلته تميم أو أصحابه ، فاشتدَّ عليه المرض فمات في بعض الطريق بنواحي (مَرْو) في بلاد فارس . وقال بعضهم الآخر إنه طُعِنَ في بعض المعارك في ثغور خراسان بطعنةٍ عطلته عن مواصلة الجهاد ، ورأى أن يعود بجراحه إلى أهله ليُعْنَوا به ويموت بينهم ، إلا أن قضاءَه عاجله في بعض الطريق في نواحي (مرو) ، كما ذكرنا ، فدفنه صحبه في تلك الأرض ، وحملوا ماله إلى أهله على بعيرٍ له ، وكانت وفاته في السنة نفسها التي عُزِل فيها سعيد بن عثمان من خراسان ، وهي سنة ٥٨هـ ، وخلَّف أصحابُه على قبره علامة مميِّزة بقيت تدلّ عليه حتى القرن الرابع الهجري على الأقل ، نظراً لقول أبي الفرج عنه في (أغانيه) : (**فلَمْ يَزَلْ بخراسان حتَّى مات ، فقَبْرُه هناك معروفٌ**) .

ولما كان مالكٌ يُحِسّ ، وهو على تلك الحالة ، في بلاد غريبة وأرض بعيدة عن موطنه وأهله ، بدنُوِّ أجله يوماً بعد يوم ، وربما ساعةً بعد ساعة ، فقد نسج لنا قصيدة في رثاء نفسه ، ليخفِّف بها عن آلامه ، وليوصِل بها خبره إلى أهله ، وليخلِّد ذكرَه على مَرِّ السنين . وقد تحقَّق له ما أراد ، فنحن حين نقرأ قصيدته هذه نشعر بأنه لا يزال حياً بيننا ، لأنه عبَّر فيها عن تجربةٍ إنسانية مؤثِّرة ، هي تجربة الغربة والحنين مع الشعور بدنو الأجل في أرض غريبة ، وهي كثيراً ما تقع في حياة الناس على مستوى العالم وستقع ، إلا أن شاعرنا وحدَه استطاع أن يلتقط تلك التجربة ويثبِّتها ويجسِّدها ويخلِّدها في أذهان الناس منذ فرَغ منها إلى يومنا هذا ، فكانت قصيدته لوحة فنية رائعة رسمها بالكلمات ولوَّنها بعواطفه ورؤاه ، وهي تقع في أوفى رواياتها عموماً عند أبي علي القالي في (ذيل أماليه) ، روايةً عن أستاذه أبي بكر بن دريد ، في ٥٨ بيتاً ، اخترنا منها الأبيات التالية (من الطويل) :

١- أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً بِجَنْبِ الْغَضَا أُزْجِي الْقِلاَصَ النَّوَاجِيَا

٢- فَلَيْتَ الْغَضَا لَمْ يَقْطَعِ الرَّكْبُ عَرْضَهُ وَلَيْتَ الْغَضَا مَاشَى الرِّكَابَ لَيَالِيَا

٣- لَقَدْ كَانَ فِيْ أَهْلِ الْغَضَا لو دَنَا الْغَضَا مَزَارٌ وَلَكِنَّ الْغَضَا لَيْسَ دَانِيَا

٤- أَلَمْ تَرَنِيْ بِعْتُ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَأَصْبَحْتُ فِيْ جَيْشِ ابْنِ عَفَّانَ غَازِيَا

٥- وَأَصْبَحْتُ فِيْ أَرْضِ الأَعَادِيِّ بَعْدَمَا أَرَانِيَ عَنْ أَرْضِ الأَعَادِيِّ قَاصِيَا

٦- إِنِ اللهُ يُرْجِعْنِيْ مِنَ الغَزْوِ لاَ أَكُنْ وَإِنْ قَلَّ مَالِيْ طَالِباً مَا وَرَائِيَا

٧- لَعَمْرِيْ لَئِنْ غَالَتْ خُرَاسَانُ هَامَتِيْ لَقَدْ كُنْتُ عَنْ بَابَيْ خُرَاسَانَ نَائِيَا

٨- فَإِنْ أَنْجُ مِنْ بَابَيْ خُرَاسَانَ لا أَعُدْ إِلَيْهَا وَإِنْ مَنَّيْتُمُوْنِيْ الأَمَانِيَا

٩- فَلِلهِ دَرِّيْ يَوْمَ أَتْرُكُ طَائِعًا بَنِيَّ بِأَعْلَى الرَّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا

١٠- وَدَرُّ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ يَدْعُوْ صِحَابَهُ وَدَرُّ لجَاجَاتِيْ وَدَرُّ انْتِهَائِيَا

١١- تَذَكَّرْتُ مَنْ يَبْكِيْ عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ سِوَى السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ بَاكِيَا

١٢- وَأَشْقَرَ مَحْبُوْكٍ يَجُرُّ عِنَانَهُ إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا

١٣- يُقَادُ ذَلِيْلاً بَعْدَمَا مَاتَ رَبُّهُ يُبَاعُ بِبَخْسٍ بَعْدَمَا كَانَ غَالِيَا

١٤- وَلَكِنْ بِأَطْرَافِ السُّمَيْنَةِ نِسْوَةٌ عَزِيْزٌ عَلَيْهِنَّ الْعَشِيَّةَ مَا بِيَا

١٥- وَلَمَّا تَرَاءَتْ عِنْدَ مَرْوٍ مَنِيَّتِيْ وَحَلَّ بِهَا سُقْمِيْ وَحَانَتْ وَفَاتِيَا

١٦- صَرِيْعَاً عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ بِقَفْرَةٍ يُسَوُّوْنَ لَحْدِيْ حَيْثُ حُمَّ قَضَائِيَا

١٧- أَقُوْلُ لأَصْحَابِيْ : ارْفَعُوْنِيْ فَإِنَّنِيْ يَقَرُّ بِعَيْنِيْ أَنْ سُهَيْلٌ بَدَا لِيَا

١٨- وَيَا صَاحِبَيْ رَحْلِيْ دَنَا الْمَوْتُ فَانْزِلاَ بِرَابِيَةٍ إِنِّيْ مُقِيْمٌ لَيَالِيَا

١٩- أَقِيْمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ وَلاَ تُعْجِلاَنِيْ قَدْ تَبَيَّنَ شَانِيَا

٢٠- وَقُوْمَا إِذَا مَا اسْتُلَّ رُوْحِيْ فَهَيِّئَا لِيَ السِّدْرَ والأَكْفَانَ عِنْدَ وَفَاتِيَا

٢١- وخُطَّا بِأَطْرَافِ الأَسِنَّةِ مَضْجَعِيْ وَرُدَّا عَلَى عَيْنَيَّ فَضْلَ رِدَائِيَا

٢٢- وَلاَ تَحْسُدَانِيْ بَارَكَ اللهُ فِيْكُمَا مِنَ الأَرْضِ ذَاتِ الْعَرْضِ أَنْ تُوْسِعَا لِيَا

٢٣- خُذَانِيْ فَجُرَّانِيْ بِبُرْدِيْ إِلَيْكُمَا فَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبَاً قِيَادِيَا

٢٤- وَقَدْ كُنْتُ عَطَّافاً إِذَا الْخَيْلُ أَدْبَرَتْ سَرِيْعاً لَدَى الْهَيْجَا إِلَى مَنْ دَعَانِيَا

٢٥- وَقَدْ كُنْتُ مَحْمُوْداً لَدَى الزَّادِ وَالْقِرَى ثَقِيْلاً عَلَى الأَعْدَاءِ عَضْباً لِسَانِيَا

٢٦- فَطَوْراً تَرَانِيْ فِيْ رَحَىً مُسْتَدِيْرَةٍ تُخَرِّقُ أَطْرَافُ الرِّمَاحِ ثِيَابِيَا

٢٧- وَطَوْراً تَرَانِيْ فِيْ ظِلاَلٍ وَنِعْمَةٍ وَطَوْراً تَرَانِيْ والْعِتَاقُ رِكَابِيَا

٢٨- وَقُوْمَا عَلَى بِئْرِ الشُّبَيْكِ فَأَسْمِعَا بِهَا الْوَحْشَ وَالْبِيْضَ الْحِسَانَ الرَّوَانِيَا

٢٩- بِأَنَّكُمَا خَلَّفْتُمَانِيْ بِقَفْرَةٍ تَهِيْلُ عَلَيَّ الرِّيْحُ فِيْهَا السَّوَافِيَا

٣٠- يَقُوْلُوْنَ لاَ تَبْعَدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَنِيْ وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلاَّ مَكَانِيَا

٣١- غَدَاةَ غَدٍ يَا لَهْفَ نَفْسِيْ عَلَى غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِيْ وَأَصْبَحْتُ ثَاوِيَا

٣٢- وَأَصْبَحَ مَالِيْ مِنْ طَرِيْفٍ وَتَالِدٍ لِغَيْرِيْ وَكَانَ الْمَالُ بِالأَمْسِ مَالِيَا

٣٣- فَيَا صَاحِبِيْ إِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ بَنِيْ مَازِنٍ والرَّيْبِ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

٣٤- وَعَطِّلْ قَلُوْصِيْ فِي الرِّكَابِ فَإِنَّهَا سَتُبْرِدُ أَكْبَاداً وَتُبْكِيْ بَوَاكِيَا

٣٥- أُقَلِّبُ طَرْفِيْ فِي الرِّكَابِ فَلاَ أَرَى بِهِ مِنْ عُيُوْنِ الْمُؤْنِسَاتِ مُرَاعِيَا

٣٦- وَبِالرَّمْلِ مِنِّيْ نِسْوَةٌ لَوْ شَهِدْنَنِيْ بَكَيْنَ وَفَدَّيْنَ الطَّبِيْبَ الْمُدَاوِيَا

٣٧- وَمِنْهُنَّ أُمِّيْ وَابْنَتَايَ وَخَالَتِيْ وَبَاكِيَةٌ أُخْرَى تَهِيْجُ الْبَوَاكِيَا

وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University